٧٩. ما موقف الإسلام من تحديد النسل؟

يطلق هذا العنوان على قضيتين مختلفتين كل الاختلاف ، الأولى تعنى التحديد المؤقت بعبارة أدق تنظيم النسل ، أما الأخرى فتعنى تقليل عدد الأمة ، وحصره فى رقم معروف مثلا ، وتوجيه الأفراد بعد ذلك لتنفيذ مطالبه . .

ونتناول القضية الأولى ، فنواجه حالات فريق من النسوة يحملن ولم ينقض على وضعهن عدة أسابيع!

إن هذا الحمل يجيء والأم ضعيفة غالبًا من آثار الولادة السابقة ، ورضيعها بين يديها يحتاج إلى عناية موفورة ، والجنين الجديد ينشأ فى ظروف صعبة ، فإذا تم وضعه انشغلت الأم بولدين يرهقانها ويوهن أحدهما الآخر ! . .

من حق الأم أن تتقى هذه المشكلة ، وأن تؤخر الحمل بعد ولادتها نحو سنتين تتم فيهما الرضاعة ، وتقوى على حمل جديد! . .

وجمهور الفقهاء يبيح ذلك ويرى أن هذا التحديد المؤقت للنسل يحقق مصالح لها وزنها ، ويشترط أن يتم ذلك بموافقة الزوجين ، وباتباع وسيلة لا تضر الأم ، فإن كثيرًا من الأدوية المانعة للحمل تترك آثارًا سيئة على الأمهات والأجنة! . .

والواقع أن هذا التنظيم فردى لا جماعى ، وأنه لايضع رقما معينا للأولاد ، فما تقدمه الأقدار هدايا جديرة بالحفاوة ، ومن الغرور الزعم بأننا نسعد ونشقى! . .

وهنا يجيء الحديث عن القضية الأخرى ، قضية ألا يزيد عدد الأمة المصرية أو العراقية أو الباكستانية عن رقم معين ، أو نسبة مضبوطة فى الزيادة السكانية .

ونحن مضطرون إلى ذكر حقائق قد يكون بعضها مخجلا ، أو يكون من وضع ساسة يكنون للإسلام وأمته أخبث النيات . .

ونبدأ بالتنبيه إلى أن الحدود الجغرافية التى رسمت لدار الإسلام وشعوبها فى هذا العصر حدود وهمية مزورة لا اعتراف بها من الناحية الدينية . .

فلكل مسلم أن يطلب رزقه فى أى مكان ينشده بين الأطلس والهادى ، دون أى قيد ، وخيرات الأرض الإسلامية متاحة لكل من ينطق بشهادة التوحيد ، لايحجبه عنها مولده فى قطر من الأقطار .

ومن الجاهلية تكليف شعب فى إفريقيا مثلا بتقليل عدده لأن نتاج أرضه قليل ، على حين أن الأرض الإسلامية فى آسيا ثرية الينابيع! هذه تعاليم استعمارية لإفساد الأمة الإسلامية كلها بزيادة الفقر فى جانب وزيادة الغنى فى جانب آخر ، وهى تتوسل بالنزعات القومية لإشاعة هذه الفوضى التى لم تعرفها دار الإسلام منذ بدأ الإسلام ! . .

ولو فرضنا جدلاً أن العالم الإسلامى قل خيره وجفت ينابيعه فإن المسلم لا يرتبط بمسقط رأسه ، ولا بديار إخوانه فى الدين! أمامه أرض الله واسعة! أليس يقول الله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾(١) . . أليس يقول : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾(٢) . .

لماذا لاينتشرون فى أرجاء الدنيا وينشرون دينهم كما فعل آباؤهم الأقدمون؟ . .

الحق أن قصة تحديد النسل بين المسلمين خاصة تخفى وراءها فضيحة إنسانية تضحك وتبكى! . . هذه الفضيحة هى ضمور المواهب البشرية فى أجيال من الناس تمشى فوق مناجم الذهب ، وتكسل عن أخذ ما بها! أو تعجز عن افتتاح أبوابها !

ناس يعيشون على الشواطئ ولا يحسنون الصيد! ولا يتقنون الزرع ، وقد تكون تحت أقدامهم بحيرات من البترول ، ولكنهم مشغولون عن استخراجه بالسمر والثرثرة والفخر بالآباء!

إن الأموال التى تنفق للإغراء بتحديد النسل ، لو أنفقت فى تحريك الأجهزة العقلية المتوقفة عند هؤلاء لكان ذلك أجدى!

لكن كيف تتغير مصارف هذه الأموال ، وهى من أثرياء اليهود فى أمريكا وأوربا؟ . . إن القوم يريدون أن يقل النسل بين المسلمين خاصة لأغراض معروفة! . .

(١) الملك : ١٥ .   (٢) الأعراف : ١٠ .

وتتساءل : ما الجدوى آخر الأمر؟ إنه بدل أن يكون التعداد «٥٠ مليون» كـلان سيكون «٤٥ مليونًا» فقط! أبهذا تنهض الأمم؟ أو تحل المعضلات الاجتماعية؟ . .

ونلقى نظرة أوسع على العالم أجمع ، أصحيح أن خيرات الأرض دون إعداد البشر التى تنمو باطراد؟ . .

الذى نراه أن جهودًا هائلة فى الإنتاج الزراعى والصناعى تجمد عمدًا فى أسلحة الدمار الشامل! إن الله لم يقتل البشر بتقليل رزقه وإجاعة خلقه ، ولكن البشر يتظالمون وينتحرون بالأثرة والعدوان . .

والمسلمون يحملون وزرًا مضاعفًا فى تلك الفوضى ، لأنهم يجهلون ما لديهم من حقائق أو يجحدونها ، وهوانهم الإنسانى أزرى برسالتهم وزهد الآخرين فيها! ولو هبطوا إلى نصف عددهم ما أغنى عنهم ذلك! وأثبت هنا هذه الكلمة فى العدد ١٥٦٠ من صحيفة «الشرق الأوسط» فى عمود «أسود وأبيض» كتب الأستاذ فاروق لقمان كلمة عن اليابان وسر تطورها حضاريًا وصناعيًا ، وكيف أضحت طليعة زاهية فى العالم الأول ، وكيف أن أمريكا وأوربا معا تخشيانها ، وترهبان منافستها لهما! . .

وعزا الكاتب سر هذا الارتقاء إلى الأم اليابانية ، فهى التى تغرس فى أولادها خصائص التفوق ، والإصرار على النجاح ، وفضائل الصدق والإخلاص وحب الوطن . . . إلخ .

والواقع أنى أحسست بالأسى لأن الأم الإسلامية لا تعى شيئًا من هذا كله ، لقد كتب عليها باسم الإسلام المفترى عليه ألا ترى أحدًا وألا يراها أحد ، ومنعت منعًا باتا أن تدخل مسجدًا أكثر من عشرة قرون! ومنعت منعًا باتًا أن تدخل مدرسة أو تتلقى علمًا فى معهد خاص أو عام ، كأن تجهيلها دين ، حتى قيل : لولا الحضارة ما فتحت جامعة أمام طالبة ، بل ما فتحت مدرسة ابتدائية!!

وأحزننى أن يسأل الإسلام عن هذا الهوان!! .

ثم قرأت بعد ذلك تعليقًا للسيد الزبير محمد نور سليمان يؤيد فيه تعاون الجنسين فى اليابان على النهوض بمستويات الأمة كلها ، ويؤكد عظمة النصيب الذى تسهم به «الأم»! مما يذكر بقول حافظ إبراهيم :

قال السيد الزبير : هذا الحديث ذكرنى بأشياء شاهدتها وعشتها فى اليابان . ساقتنى الظروف إلى هناك على ظهر سفينة يونانية ، كنت ضمن بحارتها كانت السفينة محملة بفول صويا . . من ميناء نيو أورليانز بأمريكا إلى ميناء يوكوهاما والباقى فى ميناء آخر فى اليابان نفسها . . عملية التفريغ تتم دائما لمثل هذا النوع من الحبوب ، بواسطة أنابيب كبيرة توضع داخل العنابر وتشفط الحبوب بواسطة الضغط إلى صومعة الغلال مباشرة . . أسرع طريقة أشاهدها . . أى فى غضون خمسة أيام تفرغ سفينة حمولة قدرها ثمانون ألف طن . . هذا غير الذى شاهدته فى ميناء الإسكندرية ، حيث مكثنا ثلاثة أشهر بالتمام لتفريغ حمولة بنفس القدر من القمح بواسطة الجوالات . . نصفها يضيع على سطح السفينة وداخل الماء طعامًا للسمك ، والنصف الآخر تحملها ترلات إلى داخل البلد ، والقمح يصب من الجوالات المهترئة على الأرض . . فى شريط ليس له نهاية . .

إن هذه الظاهرة هى التى رأيتها فى الإسكندرية وللأسف الشديد نعود إلى اليابان ، بعد أن تم تفريغ الشحنة فى يوكوهاما بدأنا نستعد لمغادرة الميناء ، ولكن قبل المغادرة كان يجب تسوية أكوام فول الصويا داخل العنابر ، كى لا تميل السفينة وتتعرض لخطر الغرق . . إذا كان لزاما على المسئولين فى الميناء القيام بهذه المهمة . . بعد ساعات قليلة رأيت مجموعة من النساء العجائز يهرعن إلى السفينة وهن يحملن معدات العمل من حبال ، ومجارف وجوالات ، أقول نساء عجائز عمر أصغرهن يقارب الستين عامًا . . عمر جدتى بادئ ذى بدء لم أصدق ، قلت : ربما جئن لمساعدة العمال فى أشياء خفيفة . . ولكن رأيت النساء ينزلن العنابر كالشياطين ويبدأن العمل بهمة لا تعرف الكلل . . وأى عمل . . عمل شاق يصعب على الرجال الأشداء . . أنا كبحار ورجل عندما أنزل فى هذه العنابر على السلالم الحديدية ، العارية من أى مكان ، أشعر بالدوار والرهبة ؛ لأن عمق العنبر نحو خمسة عشر مترًا ، وطوله أكثر من خمسين مترًا كله مبنى من الحديد . . رأيت النساء ينزلن ويصعدن هذه السلالم فى دقائق معدودات . . تعجبت من هذه الأمة . . قلت إذا كانت نساؤهم يعملن هكذا ، فكيف يعمل الرجال إنهن يحققن

المعجزات التى لا تخطر على بال . . فلا عجب إذا رأيت اليابان فى هذا العلو الشاهق من العلم ، والتطور ، والتكنولوجيا والصناعات التى أذهلت أوربا وأمريكا . . إننى أسجل هذه القصة لأنها تشير إلى عمل ما تقوم به بعض النسوة! وإن كنت أتردد ـ ولعل ذلك من آثار التربية ، وطبائع البيئة ـ فى اختيار هذا العمل لعجائزنا . .

بل إننى رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع «موسكو» ليلا ، وعافت نفسى إسناد هذه المهن لهن عندنا ! . .

إن كل الذى أريده تنفيذ تعليمات الرسول ﷺ فى أن النساء شقائق الرجال ، وتنفيذ الحقيقة القرآنية . . ﴿لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾[1] .

أما هذا السحق لشخصية المرأة ، وعدها للمهام الجسدية وحدها ، فذاك عوج أعتقد أن تقاليد الصحراء هى المسئولة عنه ، لا تعاليم الإسلام ، ومن الظلم أن يؤاخذ الإسلام بتقاليد أمة من الأمم التى دخلت فيه .

على هذه الأمة أن تنقاد لتعاليم الإسلام ، لا أن تفرض تقاليدها على هدايات الله . .

(١) آل عمران : ١٩٦ .

٨٠. لماذا حرم الإسلام الخمر؟ وما عقوبتها؟

بين يدى العدد ٣٨ الذى أصدرته منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨١م عن الكحول والعقاقير المخدرة ، وقد أجلت النظر فى صحائفه فوجدتها ملأى بالنذر من ضراوة الخمر وفتك المخدرات ، ووجدت دراسات طبية وإحصاءات اجتماعية تثير التشاؤم بسبب كثرة السكارى والمدمنين! . .

تحت عنوان «ثمن الكأس» جاءت هذه العبارة : إن الخمر شراب يبعث على السرور والاسترخاء لدى الألوف المؤلفة! ولكن المشكلات التى تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بل تهدد بفيضانها العرم كل الخدمات الصحية المتاحة . .

ثم يقول الكاتب «جون مادبى» إنَّ الخمر تسببت فى وفاة ما بين ٣٣٪ ، ٥٠٪ من ضحايا حوادث الطرق فى البلاد المتقدمة ، وتتزايد نسبة الوفيات فى العالم الثالث ، و«الكحول» مخدر يمكن أن يحطم الحياة العائلية ، ويكلف الكثيرين فقدان مكانتهم الاجتماعية ، أو وظائفهم ومواردهم التى تؤمن حياتهم! . .

كما يسبب الكحول ثلاثة من عشرة من حوادث العمل ، وهو أساس فى ضعف الإنتاج ، كما أنه سبب رئيسى فى ارتكاب الجرائم ، ذلك إلى جانب أن الكحول يؤدى إلى تليف الكبد ، وهو يشكل عبئًا ثقيلاً على الخدمات الصحية فى جميع أنحاء العالم ، وفى أستراليا مثلا نراه العلة الأولى وراء نصف المرضى فى مؤسسات الصحة النفسية!! . .

والخمر من وراء فقدان الملايين من ساعات العمل على امتداد السنة وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها فى الإنتاج ـ بسبب الكحول ـ بعشرين مليار دولار سنوياً . .

وفى مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة : إن النساء المدمنات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبد ، رغم المقادير التى يتناولنها ، كما أن

استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال ، وينتهي أجلهن في سن أصغر من نظرائهن من الذكور! .

وفي مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة : عندما يشرب الآباء الخمور ، فإن الأبناء هم الذين يدفعون الثمن .

والواقع أن الآباء والأبناء جميعًا يدفعون الثمن الفادح إن كانت العبارة الأولى هي التي رفعها الفرنسيون شعارًا لهم في أعقاب الحرب العالمية الثانية! . .

ومما يلفت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمور! وإن دولا كثيرة في العالم الثالث تقبل على السكر وتتجه إلى الإدمان ، وليس هذا عجيبًا ، فإن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأعمى للغربيين من وراء هذا الانحطاط المبين . .

إن الإسلام حرم الخمر ، وعدَّها من كبائر الإثم! ونظمها في سلك واحد مع الزنى والسرقة ، ففي الحديث : **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** . .

وعن أنس بن مالك : **لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة! عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها!!** وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها ، ومحو آثارها ، وإغلاق كل الأبواب التي تؤدي إليها .

والقرآن عدها مع الوثنية والقمار وأوهام الشرك : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[1] .

والخمر كل ما غطى العقل ، وأعجز الفكر أيا كان مصدره! يستوي فيه العنب والموز والقصب ، ويستوي فيه الجامد والسائل . . فإن القصد واضح ، الله كرم الإنسان بالعقل ، فما أضاع العقل حرام . .

(1) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

ومن السخف كذلك تصور الشارع يحرم الخمر السائلة ، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضراوة وأعظم فتكا ، وإذا كان أئمة الفقه الأقدمون لم يذكروا الحشيش والأفيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه . .

فلما ظهرت بعض المخدرات أيام ابن تيمية عدها لفوره من الخمور ، وفي أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكايين ، والماريجوانا وغيرهما تغتال العقول ، وتهلك المدمن وتستأصل إنسانيته فكيف تترك؟

وفي الحديث : **«كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام»** وفي حديث آخر : **«إن من العنب خمراً، وإن من التمر خمراً، وإن من العسل خمراً، وإن من البر خمراً، وإن من الشعير خمراً، وأنهاكم عن كل مسكر»!!** . .

وظاهر من الحديث أنه يسوق نماذج ، ثم يذكر القاعدة العامة ، ونحن لا نهتم بالأسماء ، ولا بالمصادر ، وإنما نهتم بالتشخيص العلمي للأشربة والعقاقير ، فما ثبت تغييبه للعقل ، أو ما أفقد المرء اتزانه الفكري فهو محرم بيقين!! . .

ولم تكن الخمر مألوفة في البيئات الإسلامية ، وأذكر أنني في طفولتي سرت مع موكب كثيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل ، نستغرب تمايله ونستنكر سكره! وعرفت أنه سكر في حانة فتحها بعض اليونانيين في ظل الاحتلال الإنجليزي . .

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيمنة الاستعمار على شئوننا ، ثم أمست معهودة في الأحفال «الدبلوماسية» وعلى موائد بعض المتحللين! . .

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى! وأغلبهم يستحل قليلها ، وينأى عن كثيرها! وإن كان القليل عادة يجر إلى الكثير ، وتلك طبيعة عامة في الأشربة المسكرة والعقاقير المخدرة . .

ومع اضطراب الأعصاب ، وما وفدت به المدنية من هموم ، رأينا من يؤثر الغيبوبة على مواجهة المكاره! ولا بأس أن يغمض بصره أو بصيرته حتى لا يرى ما يكره! . .

أهو منطق العامة؟ أم هو لون من الانتحار؟ أم هو التماس السرور في الأوهام كما قال الأعرابي الأبله :

وإذا سكرت فإنني ... رب الخورنق والسدير!
وإذا صحوت فإنني ... رب الشويهة والبعير!

إن فترة الغيبوبة التى يحدثها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات سائبة دون قيد ، وتتيح الانطلاق الحيوانى دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطة! . .

وقد حكى الأدباء أن بدوية وفدت على بغداد ، وحضرت عرسًا يشرب فيه المنكر ، فلما انتشت قالت : أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا : بلى! قالت : زنين ورب الكعبة!! . .

الحق أن تحريم الخمور حفاظ على الدين والشرف والخلق والكرامة . . إلا أن الأوربيين مشوا فى طريقهم ، فلما رأوا المخدرات سريعة التدمير للأمة حظروها بعنف ، ويوجد تعاون عالمى على مطاردة هذه المخدرات ، ومعاقبة تجارها ومتناوليها . .

أما الخمر فقد ازداد الإحساس بضراوتها فى الأيام الأخيرة وتوجد حكومات غير إسلامية تحرمها - كالهند مثلا - لضرورات قومية . .

وفى العالمين الرأسمالى والشيوعى تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها ، وإبراز مقابحها ، فهل ذلك يكفى؟ . .

إن الإسلام تأنى فى إعلان حكمه على الخمر ، وإن كان من أول يوم ينظر إليها شزرًا ، ولم يقرر مهاجمتها إلا بعد أن أقام دعائم من الإيمان ، وضوابط الأخلاق تعين على الخلاص منها ، فلما أصدر الحكم بعد هذا المهاد أريقت دنان الخمر فى الأزقة ، ورميت قربها فى المزابل . .

أى إنه لابد من مقدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساند الحظر . .

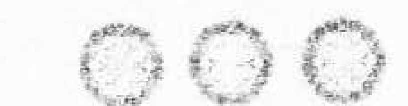
وجمهور الأطباء والمربيين والساسة والقواد العسكريين يكافحون المسكرات فى العهود الأخيرة ، وأظن أنه لايمنع من عقاب شاربيها إلا الخوف من التشبه بالإسلام! . .

والفقه الإسلامى يضع حدًا لشارب الخمر قدره ثمانون جلدة ، وليس لهذا الحد سند من الكتاب الكريم أو السنة المطهرة ، وإنما اتفق عليه جمهور الصحابة ، وأوصى به الدولة فنفذته! ومن الفقهاء من يكتفى بأربعين جلدة . .

وفقهاؤنا مجمعون على أن من سكر من أى شراب نفذ فيه الحد ، وإن أخذ أى جرعة من الخمر أسكرت أم لم تسكر حرام ، وفيها العقوبة المقررة . .

إن دولاً كثيرة عاقبت تجار الأفيون ومتناوليه بالقتل ، ولم يسلم لها كيانها إلا بهذا العقاب الصارم ، ومع أن قليلا من الأفيون يحتاج إليه صحيًا ، وفى مجلة الصحة العالمية التى أومأت إليها آنفا : « . . إن المواد المشتقة من نبات الأفيون مثل «الكودين» و «المورفين» مفردات مهمة فى دستور العقاقير»!! . . فهل شفع ذلك فى تخفيف العقوبة على مروجيه ومدمنيه؟؟ . .

فلماذا نتهاون فى مجال المسكرات ، ثم نشتط فى مجال المخدرات؟ قد تكون نسبة الكحول فى البيرة وما يشبهها ٣٪ أو أزيد قليلا ، بيد أن الملحوظ فى هذه الأشربة أن قليلها يجر كثيرها ، أى إن الذى يشرب زجاجة من البيرة يتجرع من سموم الكحول مثل أو أكثر من الذى تناول كأس خمر !! . .



٨١. التدخين عادة شائعة، فهل للدين رأى فيها؟

لم يكن التبغ موجوداً على عهد النبوة حتى يصدر فيه حكم ، وليست له خصائص الإسكار التى لأنواع الخمور حتى يمكن إلحاقه بها ، ومن ثم فإن الحكم له أو عليه يرتبط بالآثار التى يتركها فى جسم الإنسان . .

ولم أقرأ لأحد كلمة فى أن للتدخين فائدة ، بل إن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أطالوا القول فى أضرار التدخين ، ويكاد إجماعهم ينعقد على أنه سم بطىء! ...

وقد طالعت عدداً من المجلة التى تصدرها منظمة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف «التدخين نقمة والصحة نعمة والاختيار لك»! . .

وفى المقال الأول من هذا العدد وردت هذه العبارات : «لقد اتضحت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الأمراض المزعجة! كما اتضح أن نسبة الوفيات بين المدخنين أزيد كثيراً من نسبتها بين رافضى التدخين! ولعل أكثر الأمراض ارتباطا بتدخين السجائر سرطان الرئة ، والتهاب الشعب ، وانتفاخ الرئة ، وأمراض القلب الإسكيمية ، وأمراض الأوعية الدموية! وترجع ٨٠٪ من الوفيات المتزايدة إلى هذه العلل! وهناك أمراض أخرى أكثر شيوعًا بين المدخنين ، هى سرطان الشفة واللسان والفم والحنجرة والبلعوم والمرىء والمثانة! ويتكرر حدوث قرحة الإثنى عشر بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم . . . إلخ .

وقد تأملت فى هذا الكلام طويلا ، ولم أستطع رده ، ولكنى تساءلت : لماذا تبدو هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يرتاب فيها؟ وعلمت أن الخالق أبدع تكوين الجسم البشرى ، وأودع فيه مقاومة شديدة للبلاء الهاجم! كأن الجسم ثوب متين النسيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخترق! بيد أن كثرة الاستعمال ، ستوهن قدرته يومًا فلا يتماسك أمام شىء يوضع فيه! . .

وربما ظن البعض أنه محصن ضد السرطانات وضروب الأذى المقرونة بالتدخين ـ وليس لهذا الظن أساس علمى ـ لكن يبقى ما لا شك فيه ، وهو أن التدخين

مضعف عام للصحة ، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره ، وأن الرائحة الرديئة المنبعثة من التبغ المحترق تلوث الفم والأصابع والملابس والجو المحيط بالمدخنين ، بل إن رائحة التدخين قريبة من النتن ، ومن حق الشخص السوى أن ينفر منها . .

وجمهور كبير من المدخنين ليس واسع الثراء حتى يحرق أمواله بلا مبالاة ، لقد ظهر أن الألوف المؤلفة من صرعى هذه العادة يحتاجون وتحتاج أسرهم إلى هذه النفقات الضائعة لتوفير الألبان والفواكه والأطعمة التى لاغنى عنها .

وقد رأت الحكومات على المستوى الدولى أن تدق أجراس الخطر ضد التدخين ، ولكنها اكتفت لأسباب ـ تضرب عن ذكرها ـ بإلصاق لافتة على كل علبة سجائر تشير إلى ضرر التدخين!

والعدد الذى بين يدى من مجلة الصحة العالمية يقول : « . . بالرغم من تحول صناعة السجائر فى البلدان الغنية إلى إنتاج سجائر تنخفض فيها نسبة القطران! وسجائر مزودة بالمرشحات «الفلتر» فإن السجائر المصدرة إلى العالم الثالث عمومًا تحوى نسبة من القطران تزيد ثلاثة أو أربعة أمثال على ما يشابهها فى البلدان المتقدمة»! . .

إن حياة السكان فى العالم الثالث تافهة ، ولا معنى للمحافظة على صحتهم! . .

والحقيقة أن التدخين بدأ يقل فى أغلب الأقطار الواعية ، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته ، وقد قرأت فى مجلة الصحة العالمية المذكورة أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠,٠٠٠ طبيب بريطانى أن نصفهم كف عن التدخين بين عامى ١٩٥١ و ١٩٦٥ ، ونتيجة لذلك انخفض معدل الوفيات بين الأطباء . .

إن شركات التدخين العملاقة تجد ضحاياها فى العالم الثالث ، وقد ارتفعت نسبة التدخين بل نسبة السكر بين الألوف المؤلفة فى هذه الأقطاع التعيسة ، وافتن المعلنون فى اجتذاب الفرائس الغبية ، فهذه امرأة أفهموها أن التدخين يزيد جاذبيتها! وهذا عيِّل أفهموه أن التدخين رجولة ! وهذا عامل أفهموه أن التدخين يجعله فارسا لا ينقصه من مظاهر الفروسية إلا أن يمتطى صهوة حصان ، أو حمار!! وهذا امرؤ مستغرق فى فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المنعقدة من سيجارة ، بم يحلم؟! أو فيم يفكر؟ فى هراء وخديعة كبرى! . .

إن التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حد الفجور في الاستخفاف والاستغلال، فقد كتب محرر جريدة «الراية» تحت عنوان «عقاقير الموت» هذا الخبر : أجرى فريق من علماء جامعة «كاليفورنيا» دراسة خلال السنوات العشر الماضية فى أكثر من عشرين بلدًا من بلدان العالم النامى ، تم خلالها تحليل نحو ٥٠٠ دواء وعقار من المعروضات الصيدلية التى تنتجها ١٥٥ شركة عالمية وتصدرها إلى أقطارنا! ثم أصدرت الجامعة نتيجة هذه الدراسة فى كتاب نشرته بعنوان «وصفات الموت فى العقاقير الموردة لبلاد العالم الثالث» . .

وتؤكد النتائج أن بعضا من كبريات الشركات العالمية ذات المكانة المرموقة فى إنتاج الأدوية والعقاقير الطبية ، تسوق منتجاتها فى أقطار العالم الثالث بوسائل من الإعلانات المكذوبة والدعايات القائمة على الغش والرشوة والخداع ، وتتغاضى هذه الشركات عن ذكر الأعراض الجانبية للأدوية التى تبيعها ، والمضاعفات الخطيرة التى تنشأ عن منتجاتها ، وكثيرا ما تكون لها عواقب وخيمة ومميتة . .

وأشارت الدراسات إلى أن أربع شركات وحسب من الشركات الـ ١٥٥ هى التى تلتزم بأمانة العمل وأخلاقياته ، وذكرت أن الأدوية المعروضة تتنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهدئات وبين مضادات حيوية ، أو حبوب منع الحمل . .

قال المحرر : وبما أننا من أبناء العالم الثالث فإن أسواقنا سوف تبقى مجالا لهذه الأنشطة المسمومة ، وسوف تبقى مستهلكة لمقادير ضخمة من أدوية الطالح فيها أضعاف الصالح . .

الحقيقة أن الأمم الغربية لاتعدنا بشرًا مثلهم ، وأنهم ينظرون إلينا باستهانة أو بازدراء! . . إن كلمات الشرف والاستعفاف والأمانة ملغاة فى معاملتنا ونحن المسئولون عن هذا السلوك المحقور . .

ومن دعا الناس إلى ذمة   ذموه بالحق وبالباطل!

إن قدرًا كبيرًا من الأموال العربية يذهب فى مطالب السرف ومظاهر الترف التى تسيطر على الخاصة والعامة! . .

والغربيون يعلمون أن تقاليد الرياء الاجتماعى هى التى تحكمنا ، وعن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا . .

الصعلوك يخرج من بيته واضعًا السيجارة فى فمه ، وبيته محتاج إلى بعض الضرورات ، وحسبه ذاك من مخايل الرجولة! والغنى يبعثر بيديه فى ميادين اللهو الحلال والحرام ، وهو يعلم أن أعدادًا لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التبشير فكفروا بعد إيمان! . .

وقد كنت أحيانا أنظر إلى العمال وإلى الفلاحين العائدين من الجزيرة والخليج ، فأعجب لما يحملون من هدايا! لقد أهدروا عرقهم المبذول فى أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسهروا عليها مع الأصحاب ، مضيعين بسهرهم العشاء والفجر! ومبتدئين بعدئذ نهارًا لا بركة فيه ولا إنتاج . .

لأدع هذا الاستطراد ـ وما منه بد ـ ولأسأل : هل التدخين مباح؟ إننى لا أقدر على الحكم بإباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة . .

هل هو حرام؟ قد يكون حرامًا على بعض الناس! وقد يكون مكروها عند البعض الآخر! . .

والغريب أننى قرأت لامرأة مدخنة : أن رائحة التدخين أخف من رائحة الفم الطبيعى! فأيقنت أنها هى أو بعلها مرضى! وأنهما يجب أن يذهبا إلى طبيب يشفيهما بدل أن يحكما بإباحة التدخين ، فقد قرر أطباء محترمون أن التدخين شديد الأضرار بالنساء ، وأنه قد يؤثر فى صحة الجنين! . .

إن الرائحة الجميلة من شعائر الإسلام ، سواء كانت فى الجسم أو فى الملابس ، والرجل الكريه ينبغى ألا يخالط الناس ، فإن صلاة الجماعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة !! . .

٨٢. ما حكمة الزكاة؟ وما نصابها؟

البخل عاهة قديمة فى الطبيعة البشرية، ترجع إلى حب المرء لنفسه وحرصه على مصلحته، وارتيابه فى المستقبل ارتيابا يغريه بالادخار، والجمع بعد الجمع!.

والدين لا يبغض للمرء نفسه ولا يزهده فى مصالحها، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم! ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوان!..

فالحيوان ما يتحرك إلا وفق قوانين اللذة والألم، إنه يستقتل من أجل قوته أو قوت صغاره الذين هم امتداد له، والعالم فى عينه لا يتجاوز هذا النطاق..

والإنسان القريب من الحيوان يصبح ويمسى محصورًا فى مآربه ومطالبه، لا يفكر أبعد من ذلك فليحى هو ولتمت الدنيا كلها بعدئذ.

وقد جاء الإسلام فخلع الفرد من هذه الأثرة، وجعله جزءا من كيان مشترك أو جسد واحد، وأفهمه أن الإيمان يقتضى محبة الآخرين والرحمة بهم، واحترام مصالحهم، وقد يقتضى الإيثار والعطاء المبرأ من المن.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] وقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾[2].

وعند التأمل نجد أن حب المرء لنفسه ونسيانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الآخرين، وتطلعه إلى مزيد مع فقدان غيره للضرورات الماسة! ولم أعرف شيئًا يورث الضغائن كهذا التفاوت، إنه يحول الجماعة البشرية إلى قطيع متوحش!..

ومحنة الدين فى المجتمعات التى تحولت إلى الماركسية أتت من ذلك التفاوت الظالم، والثوار ما كانوا حاقدين على الوجود الإلهى قدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومسغبة البائسين..

(١) التغابن: ١٦. (٢) الليل: ١٧ - ٢٠.

وقد رأينا القرآن الكريم يعد أولئك الكهنة البطان هم السبب فى كفر الناس! ويعتبر مسلكهم صدا عن سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

والكلام فى الزكاة فرع تنقية الطباع من الشح، وغرس الأخوة المتحابة المتراحمة المتكاملة..

وقبل أن أعطى أحدا من مالى أنا باسم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه، وجزاء سعيه!..

لقد رأيت قاعدين يشركون الآخرين فى ربحهم تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان! رأيت الأعرابى يكفل عشرة من الناس ليستولى على نصف رواتبهم جميعًا! والإسلام برىء من هذا الجشع والغصب!.

إن دور الزكاة يجيء بعد إرساء قواعد الحلال والحرام، فإذا حدثت ثغرات فى المجتمع بعد تسييره وفق سنن عادلة فإن الزكاة تمسح الآلام، وتنشر الرحمة والوئام، إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

لم أعرف نظامًا دينيا فى الأولين والآخرين اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم الإسلام، وفى كتاب الله وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الإسلام تعميم الخير وإشاعة النعمة ومطاردة البأساء والضراء، وجعل بسمة الرضا يصطبغ بها كل فم!..

من قديم والناس يكرهون استخراج المال من خزائنهم، ويودون لو بقى لهم وحدهم، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة، ويكسر حدتها، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يفيئوا إلى أمر الله، وهكذا فعل الخليفة الأول، فهل يتكرر ما فعل؟..

عن الأحنف بن قيس قال: «كنت فى نفر من قريش فمر أبو ذر رضى الله عنه وهو يقول: بشر الكافرين برضف يحمى عليهم فى نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدى أحدهم

(١) التوبة: ٣٤. (٢) التوبة: ١٠٣.

حتى يخرج من نغض كتفه أعلاه . ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل، فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً! فأدبر، فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم! فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً! إن خليلى أبا القاسم دعانى فأجبته، فقال: أترى أحداً؟ فقلت: أراه! فقال: ما يسرنى أن لى مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير! ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئاً» . .

وقد جاءت عن أبى ذر رواية أخرى تفسر ما نقلناه هنا قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال: هم الأخرون ورب الكعبة! قلت: يا رسول الله فداك أبى وأمى، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالا! إلا من قال هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله! وقليل ما هم! ما من صاحب! بل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما نفدت أخراها عادت إليه أولاها حتى يقضى بين الناس» . .

وهذا الحديث يفيد إخراج الحقوق المعلومة ، والتيقظ إلى كل خلل يقع فى المجتمع والمسارعة إلى سده ، وهو ما قاله الله سبحانه : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(1) .

وهذا الإنفاق المطلوب لايعنى أبداً أن يظل المرء ينفق حتى يفلس ، ويصبح مساويًا لمن كان يعطيهم! فهذا فهم سخيف ، وإنما القصد قهر البخل وإحسان المواساة! عن جابر بن عبدالله ﷺ قال : جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فأخذها ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته، وقال: يأتى أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة! ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى! . .

وإنما شرحنا هذه القضية لأن البعض نسب إلى أبى ذر أنه يحرم الكنز ، ويأمر بالنفقة حتى لايبقى شىء ! . .

هناك حق معلوم قدر فى السنّة الشريفة بربع العشر فى الأموال المدخرة وعروض التجارة ، وبنصف العشر فى المحاصيل التى يتكلف فيها أصحابها ، وبالعشر فى

(1) البقرة : ٢٧٤ .

المحصولات السهلة . واختار فى الأراضى الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المالك والمستأجر ، كما أختار القول بأن الزكاة فى جميع ما تخرجه الأرض من حبوب وفواكه وثمار . .

وقد جدت فى ميادين المال أشياء تقتضى النظر فى أحكام الزكاة المتوارثة ، فإن القواعد التى درسناها تجعل الوزير مثلا لايخرج زكاة عن مرتبه الذى ينفقه فى بيته ، مادامت النفقة تستغرقه! على حين توجب الزكاة على فلاح يزرع فدان شعير ، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد! كما أن أغلب الفقهاء القدامى لا يأخذون زكاة من فدان فاكهة يدر ألف جنيه ، ويأخذونها من فدان يدر ربع هذه القيمة . .

وقد لفت النظر من أربعين سنة فى أول كتاب ألفته إلى هذا التفاوت المثير ، وتحدثت عما أسميته زكاة المال وزكاة الدخل! وقد كان ذلك إشارة محدودة إلى ما يجب عمله ، لاسيما أن الزكاة ليست عبادة محصنة يستحيل فيها التغيير ، بل هى عبادة مربوطة بحكمة ، وتترتب عليها مصالح متجددة . .

ثم جاء الشيخ يوسف القرضاوى فوضع كتابه فقه الزكاة الذى قلت : إنه أهم كتاب ألف فى هذا الركن الإسلامى منذ بدأ تاريخنا الثقافى . .

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء والاقتصاديين تترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة ، تبين كم تساوى عشرون مثقالا من ذهب ، ومئتا درهم من الفضة وخمسة أوسق من الحبوب ، وماذا يتركه التضخم من آثار فى قيم الأنصبة؟ . .

إن الزكاة عمل رائع فى ديننا العظيم ، وقد حصنت المجتمع الإسلامى من زلازل دكت غيره ، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدرس والتطبيق الواعى ، وضبط الحقوق المعلومة ، وإيصالها إلى أصحابها بأشرف أسلوب .

٨٣. ما العلاقة بين الإسراء وبنى إسرائيل؟

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى آية فذة قصة الإسراء، ثم ينتقل السياق بغتة إلى تاريخ بنى إسرائيل. وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الإسراء فى بعض المصاحف سورة «بنى إسرائيل»..

بل أقول: إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين «بيت المقدس» ويسترده من الصليبيين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ بعد أن لبث فى أيديهم قرابة قرن: كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين فى ذكرى احتفالهم بالإسراء إشارة إلى أن المسجد الذى ورثه الإسلام يجب أن يبقى له، وأن العلاقة بين أولى القبلتين وأخراها لاتنفصم، وأنه لا الصليبية قديمًا ولا الصهيونية حديثًا ستغيران سنن الله فى مصاير الأمم، وإن نجحت كلتاهما إلى حين فى إلحاق هزيمة بالمسلمين!...

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا..

قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

وعقب هذه الآية مباشرة نقرأ قوله تعالى:

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾[2].

ما العلاقة بين الإسراء، وإنزال التوراة وتاريخ اليهود، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها، وتبصير المسلمين بعواقبها؟؟

إن الإسراء كان من مكة إلى القدس. ولليهود فى هذه البقاع تاريخ!..

صحيح أنه لم يكن لهم وجود فى فلسطين يوم وقع الإسراء، بل كان وجودهم فى فلسطين محظورًا، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه..

(١) الإسراء: ١.   (٢) الإسراء: ٢.

وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها فى صدر سورة الإسراء، وهو ما أريد الآن متابعته من الناحية التاريخية..

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قديمًا وهم سلالات عربية كإخوانهم العدنانيين والقحطانيين، ويظهر أنهم تجبروا، وأثاروا الرعب حيث يعيشون، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم، فسلط عليهم بنى إسرائيل. وقد وجل الإسرائيليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين، وغلبهم الجبن، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾[1].. فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾[2]!..

وعوقب الإسرائيليون على جبنهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة مات خلالها موسى، ثم خلفه يوشع الذى قاد بنى إسرائيل إلى فلسطين منتصرًا على الكنعانيين، وبانيًا حكمًا دينيًا باسم التوراة بعد هزيمة العرب!..

بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلا حتى نجمت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء، زادوا بها شرا على من كان قبلهم! وقد حكوا عن أنفسهم، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة، وبدا أن السلطة فى يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد، فليسوا لها بأهل!.. ينبغى تجريدهم منها!..

وكانت فلسطين - حتى بعد قدوم اليهود - مليئة بأجناس أخرى، وكان المسلك المستحب لبنى إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن «البنعميين» من أصل لا يمكن أبدا أن يرتفع، كيف، قالوا: إنهم سلالة «لوط» لما سكر وزنى بابنته!.. وكتبوا ذلك فى سفر التكوين!!..

والقصة يقينا مكذوبة، فأنبياء الله لا يسكرون ولا يزنون!!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفوهم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر فى العهد الجديد، فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى وهو يدعو فى بيت المقدس، وصاحت به: يا سيد يا ابن داود، بنتى مريضة جداً..

وطلبت منه شفاءها!..

(١) المائدة: ٢٢.   (٢) المائدة: ٢٤.

فقال لها : اذهبى يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب . يعنى بالبنين : بنى إسرائيل ، وبالكلاب : الكنعانيين . .

فقالت المحزونة : والكلاب أيضًا تأكل أقدام السادة! فشفى لها ابنتها بعد هذه الضراعة الذليلة! . .

ونحن نجزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم يستحيل أن يسلك هذا المسلك ، أو يرسل هذه الشتائم! لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تجريح الأنبياء وإهانة الشعوب! ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[1] . .

أيكفى فى معاقبة بنى إسرائيل أن يطردوا من فلسطين؟ . .

لا . . إن الله عزلهم نهائيًا عن القيادة الدينية التى كانت لهم ، وحرمهم من الوحى وشرف إبلاغه ، واصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة ، وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول . فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، وأصبحت الأمة العربية لا العبرية هى الوارثة لهدايات السماء! . .

ونهض الإسلام بالعرب نهضة رائعة ، وجعل منهم حملة حضارة زاهية ، وفوجئ العالم بالأمة التى لم تعرف إلا رعى الغنم ونقل السلع ، تتلو من كتابها أصح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد . .

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يغار علينا واترين فيشتفى

بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا

فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وها هم العرب بالإسلام يعلمون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال «غستاف لوبون» : **إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب!** . .

وكان دخول المسلمين بيت القدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع لله والبر بالناس . .

---

(١) آل عمران : ٢٢ .

ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والمرحمة . .

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقًا آخر ، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعثرتهم فى أرجاء الأرض ، فتوزعتهم المدائن والقرى فى المشارق والمغارب . بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ومنهج ملحوظ ، يزعمون أنهم شعب الله المختار ، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله ، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم ، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل . .

وتقوقعوا فى حاراتهم يحلمون بالعودة إلى الأرض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس . .

والغريب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحيا يتلى ، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن الله هو الذى أنزلها عليهم!! . . وقد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لاسيما أنهم هم الذين سعوا فى قتل عيسى ! . .

وإذا كنا على عكس النصارى نعتقد أن عيسى نجا من مؤامرتهم فالقوم على أية حال قتلة بضمائرهم . ومن ثم شرع النصارى حكامًا وشعوبًا فى اضطهادهم وإرخاص دمائهم . .

وعرضت لهم مآس فى انحاء أوربا كادت تنتهى بإبادتهم حتى قال نفر من المؤرخين : لولا ظهور الإسلام لفنى اليهود! إنهم وجدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم !! .

ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام ، فأثرتهم الشديدة ، وشرههم فى حب المال ، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم . وقد كان «هتلر» الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من الحكام الذين أذلوهم فى طول أوربا وعرضها . .

ومرت السنون ثقيلة طويلة ، وظهرت الخلائق المستورة ، أو نبتت ونضجت البذور الكامنة! . .

كان المسلمون يغطون فى نوم عميق ، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بثارات قديمة .

كان يحلو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجوية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وسدرة المنتهى! ولا بأس أن يقولوا شعرًا ونثرًا! . . أما الدرس الواعى للأمم

التى توارثت فلسطين ، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون فى ذلك . وربما لا يخطر لهم ببال أن هذه الأمم تفكر فى العودة ، وتحسن استغلال الفرص . .

فلما جاء العصر الحديث انكشف الغطاء عن مفارقات مذهلة . انكشف عن تعصب يهودى شديد النبض ، وعن تأييد حار له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة . . أما العرب فقد قيل لهم : احلموا بإنسانية عامة متجردة عن الهوى ، نؤازركم فى المحافل الدولية ، ونعدل بينكم وبين خصومكم!! . .

واستكان النوام للأحلام فما صحوا إلا على المذابح تحصدهم رجالاً ونساء ، والتسميم يجتاح الطلاب والطالبات ، والغيوم تسد الآفاق كلها أمام مستقبل معقول . .

ما الذى حدث؟ . .

ندع الجواب لغيرنا ! . .

ندعه لخصومنا ونتدبر مايقولون . .

كتب «حاييم وايزمان» فى مذكراته يقول لقومه : تحسبون أن لورد «بلفور» كان يحابينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومى لنا فى فلسطين؟ . . كلا ، إن الرجل كان يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم !! . .

. . . وندع «وايزمان» و «بلفور» ، ونتدبر تصريحات مستر «كارتر» ومن بعده! . .

إنهم جميعا يتحدثون مع «بيجن» عن أرض الميعاد ، وعن نبوءات التوراة والحدود التى رسمتها ! . .

إن المشاعر الدينية الغائرة فى العقل الباطن والظاهر هى التى جعلت جنرال «جيرو» يقول فى دمشق أمام قبر صلاح الدين : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين! . .

وهى نفسها التى جعلت مارشال «اللنبى» يدخل القدس فى الحرب العالمية الأولى ويقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

يظهر أن العالم كله شديد الإحساس بعقائده وآماله الدينية إلا قومنا وحدهم ، فإنهم يتذاكرون بينهم أن الدين رجعية!! . .

إن قضية بيت المقدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعًا ، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟ . .

المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر فى سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوى ، ويرون الدفاع عنه جزءاً من الإيمان ، ويعترضون باسم الله ورسوله جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه! ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يعتنقونه! فكيف يتجاهل هذا؟ . .

والنصارى يرون بيت المقدس قبلتهم ، وبه قبر المسيح ، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدى المسلمين لأنهم أمناء عليها ، وحماة لها ، ولرفع التنازع الطائفى بينهم على حيازتها! .

واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله إبراهيم الخليل وذريته من بعده وزعموا أنهم هم الذرية المعنية(!) وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الأنبياء لايمنع من العودة إليها وطرد العرب منها ! . .

فإذا كان الدين وراء كل دعوى ، فكيف جاء من أسموا أنفسهم العروبيين ، وجردوا العرب من ولائهم الإسلامى ، وأغروهم بجعل القضية صراعًا جنسيًا أو نزاعًا «إمبرياليا» وغير ذلك من الأوصاف المكذوبة؟ . .

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟ . .

إن اليهود اغتصبوا نصف مسجد الخليل ، ويتآمرون على اغتصاب بقيته ، والأخبار تترى - وأنا أكتب هذه السطور - إن مساجد شتى فى يافا وعكا نسفت ، وإن ترويع الطلاب العرب فى مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، أو كما يعبر اليهود «يهوذا أو السامرة» إحياء لعناوين التوراة! .

إننى أتساءل : ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟ . .

نحن نحتفى بالبقعة التى انتهى إليها الإسراء ، وبدأ منها المعراج ، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم : لماذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟ إن الإجابة تعرف من الآيات التى أعقبت قصة الإسراء فى سورتها المباركة ، كما تعرف من دراسة التاريخ القديم والوسيط والحديث! . .

فى هذه الأرض قامت رسالات وانتهت ، وفيها نهضت دول وتلاشت . .

ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله . .

ولو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين فى هذه الأيام العجاف! . .

إن الصليبيين القدامى تقدموا فى فراغ :

كانت الفرقة بين العرب والمنافسة على السلطة هى الأسلحة التى هزمنا بها أعداؤنا ، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين فى أية معركة جادة ما سقطت فلسطين . .

وكأن التاريخ يعيد نفسه ، إن الصهيونيين تقدموا فى الفراغ نفسه!

أعانتهم الفرقة ، والشهوات المطاعة ، والعقائد المنحلة ، والأنانية الطاغية ، فكسبوا معركتهم بأيدينا . .

أريد ـ كلما استقبلنا ذكرى الإسراء ـ أن نتجاوز الهامش إلى الصميم . . أن نترك السرد السطحى للقضية . .

أن نعمق النظر فى الأسباب التى من أجلها كان الإسراء . . ولأجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية ، وتضع الموازين القسط بين الناس .

٨٤. لماذا كانت قبلة العالم فى أرضنا ؟

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث دلالته العميقة فى صلة المسلمين بأهل الكتاب . فقد كان بيت المقدس القبلة التى يتجه إليها أصحاب الأديان السماوية جميعًا .

ثم صدر الأمر إلى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس إلى مكة المكرمة! . .

ما سر هذا التحول؟ . .

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد! ولا فهموا من وحدة القبلة أن قرابة مشتركة تربطهم بأتباعه !

الذى حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبى العربى ، وعدوه منافسا محذورًا كأن الأمر صراع على مغنم عاجل ، أو مأرب قريب!

ولو كان أهل الكتاب مخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر ، فإن العرب كانوا عباد أصنام! حتى عرفهم محمد بالإله الواحد . وكانوا يعيشون ليومهم حتى أقنعهم بالعمل لليوم الآخر . وكانوا لايدرون شيئًا عن نبوة سبقت حتى حدثهم عن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين! . .

فلم الضيق بهذه الرسالة؟ ومخاصمة صاحبها؟ . .

بيد أن الأمر تجاوز الخصومة المحتملة إلى ضرب من اللدد يثير الاشمئزاز . تدبر قوله تعالى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

وإذا كانت للمسلمين مساجد تنبعث من منابرها صيحات التوحيد وتستقبل ساحاتها الركع السجود ، فإن أهل الكتاب تواصوا بصرف الناس عن هذه المساجد ،

(١) البقرة : ١٠٩ .

وتآمروا على تهديمها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾(١) .

فلم يبق بعدئذ مساغ لمشاركة هؤلاء الحاقدين قبلتهم ، وانبعثت فى نفس الرسول الكريم الرغبة فى الاتجاه إلى القبلة الأولى ، إلى الكعبة التى بناها جده الأكبر إبراهيم الخليل ، ولكنه لايستطيع ذلك إلا بإذن من الله ، فلينتظر ، وليؤمل! .

ثم جاء ـ على تلهف وشوق ـ الأمر الإلهى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(٢) . فاتجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة بعد قرابة سبعة عشر شهراً من الصلاة إلى بيت المقدس .

كانت هذه المدة كافية لفضح ضغائن اليهود ، وأثرتهم المفرطة ، وظنهم أن الدين مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون لمصلحة جنس من الأجناس ، إنهم لايفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمحة رحبة بين الناس ورب الناس .

وقد بدا لى من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون شرا من المخدوعين بالباطل ، وأن العرب الأميين كانوا ـ بنقاء سرائرهم ـ أصلح للحياة والإحياء من أهل الكتاب المستكبرين الشرهين . .

كان أولئك العرب يعتزون بكعبتهم ، ويرغبون طوال عمرهم فى استقبالها ، وهم لم ينسوا أن الله حماها عندما أراد نصارى الحبشة هدمها! وأن قوى السماء هى التى تصدت للمغيرين لما عجز أهل الأرض عن الدفاع ، فإذا الجيش المعتدى يلقى ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾(٣) . .

مع ما كان للمسجد الحرام من هذه المكانة الوطيدة ، فإن الصحابة قبلوا عن طيب خاطر ترك استقباله لما هاجروا ، ولبوا أمر الله باستقبال بيت المقدس! .

كان امتحانا صعبا غير أنهم نجحوا فيه : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾(٤) .

وعندما يحتدم النقاش حول القبلة التى يتجه الناس إليها ، يذكر الإسلام حقائق رفيعة ، يلقيها فى مسامع كل من ينتسبون إلى دين! حقائق لا يقررها إلا الإسلام وحده! إنه يتساءل : ما هذا اللغط حول الاتجاه إلى شمال أو جنوب؟ . .

(١) البقرة : ١١٤ . (٢) البقرة : ١٤٤ . (٣) الفيل : ٣ ـ ٥ . (٤) البقرة : ١٤٣ .

إن الكمال البشرى لايصنعه استقبال مكان هنا أو مكان هناك! الكمال المنشود عمل حقيقى داخل النفس الإنسانية تزكو به وتسمو . .

العظمة الإنسانية ، هى اليقين الراسخ والاستمساك بالله ، وإن هاجت العواصف! وبذل المعروف وإجابة الملهوف ، ومساندة الضعفاء وإيتاء المحرومين! . .

وهى الثبات على المبدأ وإن كثرت المغريات ، والمضى على الجهاد وإن فدحت المغارم! . .

إن اتجاه المسلمين إلى المسجد الحرام فى صلواتهم حق لا ريب فيه ، وهى قضية تنظيمية سنشرح بعد قليل أبعادها ، بيد أن ذلك لايعنى نسيان الحقيقة فى الوصول إلى الكمال الإنسانى والرضوان الإلهى ، وتدبر قوله تبارك اسمه :

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١) . .

إن اليهود يلتمسون الشرف من الانتساب إلى نبى الله يعقوب! والأب العظيم لايرفع شأن بنيه إذا كانت أعمالهم هابطة! وهم يرتبطون بالقدس والأرض المقدسة ، والأرض لاتقدس أحدا ، إنما يتزكى المرء بالهدى والتقى والعفاف والعدالة! .

والخلاف بين الناس باق إلى قيام الساعة ، إنه جزء من طبيعة الحياة ، وهو بعض الحكمة فى خلق الناس! . .

لكن الخلاف مهما اتسمت شقته لايجوز أن يكون مثار عدوان وتظالم ، ولايجوز أن يجعل الحيف حقا . ومن ثم قال الله لنبيه :

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢) .

والجملة الأخيرة فى الآية الكريمة تشير إلى خصائص أمتنا ، وإلى الرسالة التى كلفت بحملها إلى آخر الدهر . .

(١) البقرة : ١٧٧ . (٢) البقرة : ١٤٥ .

إن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء، تعرف الله، وتلتزم هداه، وترفض الفلسفات المادية، والرغبات المجنونة فى عبادة الحياة ونسيان ما بعدها..

وقد شاء الله أن يذكر للعرب وظيفتهم الدولية، عندما جعل قبلة العالمين فى أرضهم وعندما طالب البشر فى كل مكان أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام!..

فما معنى ذلك؟..

إذا قيل: إن موسكو قبلة الشيوعيين فى العالم، فليس معنى ذلك اتجاه اليساريين إلى جدار فى «الكرملين»! بل المعنى أنهم يستقون أفكارهم ويتلون توجيهاتهم من هناك!..

والواقع أن القرآن الكريم فى سياق تحديده للقبلة قال للعرب فى جلاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(1). والآية توضح الوظيفة التى اختارها القدر لأمتنا، فإن الله اختار محمدًا ليحمل أمانات الوحى، وليكون بسيرته وسنته أسوة حسنة!. وقد تلقى العرب ذلك منه ليعلموا الناس كما تعلموا، وليهدوهم كما اهتدوا، أو ليكونوا أساتذة للعالم كما كان محمد أستاذًا لهم!. تلك وظيفتهم التى رفعهم الله إليها، والتى لابد من حسابهم عليها..

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ العادى! قد يكون المرء شاهدًا فى قضية لا علاقة له بوقائعها، كل دوره فيها أنه يقول الحق، فهل هذا دور الأمة العربية فى تاريخ البشرية؟ كلا، ربما تحول الشاهد إلى متهم إذا تبين من التحقيق أن له أصابع فى وقوع الجريمة!!..

والعرب منذ حملوا رسالة الإسلام وجب عليهم أن يستنيروا بها وأن يرفعوا منارها، وأن يستطبوا بأدويتها، ويعالجوا علل العالم بدوائها، فمسئوليتهم مضاعفة. الرسول أمام الله يشهد بأنه علمهم من جهالة، وأقامهم من عوج، وهم أمام الله كذلك مطالبون بالشهادة على سكان الأرض، إنهم بلغوهم الوحى الأعلى وقدموا من أنفسهم نماذج عملية للتقوى والإصلاح والإنصاف! ترى هل قام العرب بهذه الأمانات؟..

(1) البقرة: 143.

إن رباط العروبة بالإسلام وثيق، وهذا الرباط وحده هو الذى يجعل العرب أمة قائدة رائدة فإذا وهت صلتها به، فهى تخون أساس وجودها، وهى ستتحول حتما من رأس إلى ذنب! أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير، إلى أمة يدحرجها الآخرون إلى الشر أو إلى الهاوية!.

وقد تأكد هذا المعنى مرة أخرى فى سياق تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وذلك فى قوله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾(1).

أى حتى تنقطع حجج العرب الحراص على كعبتهم الضائقين بالاتجاه السابق إلى بيت المقدس! أما أهل العناد والمتشبثون بالجاهلية الأولى، فلا تخافوهم، فأمرهم إلى إدبار ونارهم إلى رماد.. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(2).

أى إن الله باختياره المسجد الحرام قبلة لكل مصل فى الدنيا، يضاعف على العرب منته، ويتم عليهم نعمته.. وقد بدا الإنعام عليهم بانبعاث الرسول منهم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(3).

والمعنى أن العرب بهذا الدين أضحى لهم تاريخ جديد، وافتتحوا به صفحة مجد باذخ ما كان لهم به عهد من قبل، ذلك أنهم يتلون آيات الحق، ويمهدون طريق التربية الفاضلة، ويخطون معلم الحكمة والرشد، فليعرفوا لله حقه وليقدروه قدره ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(4) وهكذا يخاطب الله العرب ويشرح لهم ما أسدى إليهم من جميل! فهل نذكر ونشكر؟؟..

والأنبياء شهود على أممهم بالبلاغ المبين، وقد كان رسولنا ﷺ وهو يخاطب الناس فى حجة الوداع يقول: اللهم قد بلغت.. اللهم فاشهد!..

وهناك قبل شهادة الأنبياء مواثيق الفطرة التى أخذها الله على أبناء آدم. إن الله أودع فى كل ضمير صوتا يذكر بالله ويدفع إلى صراطه المستقيم، ويقاوم التقاليد

(1) البقرة: 150. (2) البقرة: 150. (3) البقرة: 151. (4) البقرة: 152.

المنحرفة والأصوات الزائفة ، وما من إنسان إلا هو مسئول عن هذا الميثاق : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[١] .

ويتضح من ذلك أن العدل الإلهى يستظهر على كل مخطئ بشاهدين من العقل والنقل! ومع ذلك ، فإن ناسا يوم الحساب سيحاولون بالكذب الإفلات من مصيرهم! . .

مشركون يقولون : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[٢] ودجالون مرنوا على الاحتيال والمخادعة فى الدنيا يحاولون فى الآخرة أن يقوموا بالدور القديم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾[٣] .

وهيهات أن يجدى هذا التملص مهما صاحبه حلف! . .

ولما كان محمد ﷺ شهيدًا على العرب فسيجاء به يوم القيامة وبالكتاب القيم الجامع الذى بلغه ، وسيرى عندئذ من وفى ومن غدر؟ بل من آمن ومن كفر؟ قال الله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤] .

إننى أحببت أن أشرح هذه القضية لأن العرب من أمد قريب أو بعيد شرعوا ينسون أو يتناسون رسالتهم! بل بدا لهم أن يستقيلوا من الوظيفة الشريفة التى آثرهم الله بها أو اصطفاهم لها .

وسمعنا من يقول فى جهل فاضح : إن العروبة شىء ، والإسلام شىء آخر! وإن العروبة يمكن أن تشق طريقها بغير دين إلى مستقبل مكين! . .

وقد استجاب نفر من الأغرار لهذه الفرية ، فإذا الأمة المسكينة تتراجع فى كل ميدان ، وتلاحقها الهزائم الشائنة فى كل أفق ، ولولا بقايا إيمان مبثوثة هنا وهناك لحل بها خزى الأبد ، ولكنها تقاوم اليوم ببأس شديد معتمدة على مواريث الإسلام وحده .

(١) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ . (٢) الأنعام : ٢٣ . (٣) المجادلة : ١٨ . (٤) النحل : ٨٩ .

هل للعرب فى قديم الزمان وحديثه رسالة أخرى غير الإسلام يمكن أن يؤدوها للعالم؟ . .

إن لمحمد كتابًا وسنة قامت عليهما دولة ، وأينعت حضارة! وتصدرت قافلة البشرية أمة تعتز بها وتبنى عليها ، فماذا لغيره فى الأولين والآخرين؟ وما قدر العرب من غير محمد والإسلام؟ .

قال شخص غر : وهل ضرورى أن تكون لأمة ما رسالة سماوية حتى تقتعد مكانة مرموقة فى العالم ؟ . ما أكثر الشعوب التى استراحت واستقرت برسالات أرضية!! . .

قلت : هذا الكلام قرة عين الاستعمار والصهيونية! إنهما لا يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وتاريخهم حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلا من كل سلاح فعال .

وعندما يفقد عرب فلسطين أساسهم الدينى أمام أتباع التوراة فستضيع فلسطين! . .

وعندما يزهد غيرهم فى معتقداته الإسلامية فسينطلق التبشير العالمى دون عائق ، وتكسب الصليبية جولتها الجديدة .

لا بل إن الوثنية التى ذبحت المسلمين فى «أسام» ستقطع شوطا أوسع فى الإجهاز على مبدأ التوحيد! . .

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لابد أن ينتهى بهذه النتائج! . .

أما يحق لنا أن نحصن الأجيال الجديدة ضد هذه الخيانات الفكرية والاجتماعية؟؟ . .

٨٥. هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق، وجعلها نصف الرجل فى الميراث والشهادة؟

فى قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولا : هل الإسلام مبتدع التعدد مخالفا بذلك الأديان التى سبقته؟ إن الأديان كلها ، وثنية أو سماوية أباحت التعدد فلماذا يسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به؟ . .

ليس فى العهد القديم حظر على تعدد الزوجات ، وقد جمع سليمان الحكيم صاحب نشيد الإنشاد العامر بالغزل ـ ألف امرأة فى بيته بين حرائر وإماء! . .

وليس فى الأناجيل التى كتبها تلامذة عيسى عليه السلام حظر على التعدد! إن التحريم الذى وقع بعد ذلك كان تشريعًا مدنيًا لا دينيًا ، أو كان كنسيا يعتمد على الاجتهاد لا على النص! .

قد يقال : فليسع الإسلام ما وسع الأديان قبله ، وليحرم التعدد!! . .

وهنا لا أجد مناصا من توجيه سؤال آخر؟ هل اكتفى كل رجل ، أو أغلب الرجال ، بما لديهم فلم يتصل أحدهم بأخرى؟ بل أسأل الرجال الذين تظلهم حضارة الغرب فى عدة قارات : ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرته بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟ . .

لماذا يراد قبول المرأة الأخرى خليلة لا حليلة؟ لماذا يرمى ابنها لقيطا ، أو ينشأ زنيما ، ولا ينسب لأبيه الحقيقى؟ . .

إننى أتهم إخواننا أهل الكتاب بأنهم استهانوا بمقاييس الحل والحرمة ، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ، وأنهم ـ من الناحية الجنسية ـ استباحوا الأعراض واجتاحوا الفروج ، ويسروا الشذوذ ، ومهدوا لمناكر ما عرفت بهذه الوفرة إلا فى حضارتهم المادية الموغلة فى الإثم! . .

أيعنى ذلك أنى أدافع عن تصرفات سيئة ارتكبها المسلمون باسم التعدد؟ كلا ، لقد عدد من لا يعدل ، وهذا مرفوض! بل عدد من لا يستطيع الإنفاق على واحدة! وهذا مرفوض! .

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد . .

وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى يقظة القلوب وسلامة الأخلاق قبل أن يرجع إلى سطوة القانون ، ومكاسب النساء من التعدد ـ والحالة هذه ـ ليست أقل من مكاسب الرجال! . .

أما إباحة التطليق للرجل فأحب أن أضع بين يديه هذه الروايات ، **قال رجل لعمر ابن الخطاب: أريد أن أطلق امرأتي! فقال له عمر: لم؟ قال: لا أحبها! فقال له عمر: أو كل البيوت بنى على الحب؟.. فأين التذمم والوفاء؟** . .

ويشبه هذا مارواه ابن مردويه **أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبى ﷺ، قال أنس: فقال له الرسول: إن طلاق أم أيوب لحوب!**. أى إثم فكف عن مراده وأمسك امرأته . .

وقد روى مثل تلك من طريق آخر ، **أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته، فقال النبى ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب»**. فتراجع الرجل عن مراده . .

وقد يكون الأصل فى هذا الإمساك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾[1] . .

إن الحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة ، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخصه إلا لئيم . .

بيد أن سياج الأسرة لا يقيمه إلا الخلق الزكى ، والأسر التى يمسكها القانون هى أسر على الورق وحسب . وقد سئم الأوربيون هذا الخداع واضطروا إلى الاعتراف بالواقع المرير ، فأباحوا الطلاق فى انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسة فى الموضوع . .

إننى لا أدرى كيف يدفع رجال الشرطة امرأة إلى زوجها أو رجلا إلى امرأته!

الحل الأمثل هو فى قوله تعالى :

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾[2] .

وذلك بعد مراحل من الإنذار والإصلاح مبسوطة فى كتب الفقه . .

قد يكون الطلاق جراحة لا مفر منها بعد ذهاب الود وجفاف الحنان وتولد مشاعر أخرى على نحو ما قيل :

إن القلوب إذا تنافر ودها ... مثل الزجاجة كسرها لا يجبر!

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) الطلاق : ٢ .

وإذا كان الطلاق حق الرجل للخلاص ، من هذا الوضع فالخلع حق المرأة للراحة منه! وليس لأحد أن يكره المرأة على البقاء فى بيت مقتت صاحبه وأحست الضرر بجواره ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾(١) .

وعندما تطلب الزوجة الفراق فيجب أن ترد إلى زوجها ما ساق إليها من مال ، ومن الحيف أن يدفع الرجل المهر ، ويرسل الهدايا ثم تستولى المرأة على هذا كله وتطلب الانفصال ! .

ويحزننى أن جل الفقهاء تناسى شريعة الخلع أو أبطل حكمتها ، وأن الجماهير لاتعرف شريعة تمتيع المطلقة! وأن طلاق السنة ـ كما صح عن صاحب الشريعة ـ لايطبق! وإنما المألوف المحترم هو طلاق البدعة ، فقد أمضيت آثاره كلها بوحشية! .

وعندما تيقظ فقيه ذكى كابن تيمية إلى أن طلاق البدعة باطل منكور الآثار تعرض لنقد شديد! . .

ومما يثير الدهشة أن أنصار ابن تيمية فى عصرنا لا يوافقونه على إبطال طلاق البدعة ، وإنما يوافقونه على إنكار وقوع المجاز فى القرآن الكريم! وهذا من هناته غفر الله له .

واعتقادى أن الفقهاء المسلمين المعاصرين ـ وهم يحسون المحنة الاجتماعية التى يمر بها المسلمون ـ سوف يسدون هذه الثغرات ، وينتقون من أقوال الأئمة والمجتهدين مايلم شمل الأسرة ، ويقيها عبث العابثين . .

ويجىء بعد ذلك عمل المرأة لتنفق على نفسها! إن الإسلام له منهج آخر غير ما يعرف الآن فى الحياة الغربية بشقيها الشيوعى والرأسمالى ، المرأة هناك ـ عند البلوغ ـ تستقل بنفسها ، وتواجه مستقبلها ، وتكلف بتحصيل قوتها ، والضرب فى فجاج الأرض لتأمين عيشها ، وهى تزاحم الرجل فى كل ميدان!

ماذا نشأ عن هذا الوضع؟ فقدان أغلب النساء لعفتهن ، واستطالة الذئاب فى أعراضهن لسبب أو لآخر! . .

والمجتمعات الأوربية والأمريكية والأسترالية كادت تطبق على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جسد لا علاقة لها بالخلق والدين ، وكانت لهذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبة!

(١) البقرة : ٢٣١ .

والإسلام يرفض هذا الفكر وآثاره كلها ، نعم ، قد تعمل المرأة فى ظروف تختارها أو تختار لها ، وبعد توفير ضمانات الصون وحماية الشرف ومرضاة الله . .

أما تكليفها بالكدح لتقتات ، ولتوفر مهرًا للرجل المنتظر فلا . . . ولا . . .

وهنا يوجب الإسلام نفقتها على أبيها أو أخيها أو ذوى قرابتها فإن لم يوجد أحد أرصد لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين . .

وإعانة للرجل على النهوض بهذا العبء جعل حظه فى أغلب المواريث ضعف حظ المرأة . . وقد يتساويان فى حالات كثيرة . كما أمره بأن يدفع هو للمرأة مهرها لا أن تدفع له كما توصى بعض الديانات .

وعلى الرجل أن ينصب ليقوت زوجه وولده ، فإذا عرضت ظروف لتعمل المرأة خارج البيت كان لذلك وزنه الخاص وملابساته المقدورة! . .

أعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق فى أحوال مقلقة ، ولا من تكريمها أن تجمع بين وظيفة ربة بيت ، ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها . .

وبعض الجهلة يستغل فضل الرجل على المرأة فى الميراث ليهينها ويزدرى منزلتها ، وكم أسىء إلى ديننا من أولئك الجاهلين .

ولنثبت هنا حديثًا يحتاج إلى بيان وفقه ، دار على كثير من الألسنة ، واستغل بخبث لتحقير النساء والهاب عداوتهن ضد الإسلام . . روى مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «يامعشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار .

فقالت امرأة منهن جزلة: ومالنا يارسول الله أكثر أهل النار؟..

فقال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير! مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن».!.

قالت: يارسول الله، مانقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل. فهذا نقصان العقل! وتمكث الليالى لاتصلى، وتفطر فى رمضان، فهذا نقصان الدين».

وقبل أن نحكم على ظاهر هذا الحديث ونشرح معناه نذكر حديثًا آخر يساويه في قوة السند ، ويزيد عليه في تكرار سياقاته ، وتعدد رواياته . .

هذا الحديث هو قول رسول الله ﷺ : **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء! واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»** . وفي رواية أحمد **«.... فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»** . .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام»** . .

وعن أسامة ﷺ عن النبي ﷺ قال : **«قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين! وأصحاب الجد. اليسار والعافية. محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»!!** . .

ماذا تعني ظواهر هذه الأحاديث جميعًا ، وما أثرها المنظور في بناء الأمة الإسلامية؟؟ . .

إنها تعني ترجيح الفقر على الغنى ، والمسكنة على السعة ، والصعلكة على الثراء والتمكين! . .

أيمكن أن تقوم دولة أو تزدهر حضارة أو يكسب المسلمون معركة وهم واقفون عند هذه الظواهر لما روى عن نبيهم؟ .

إن ذلك مستحيل ، والحق أن هذه الظواهر غير مرادة أصلا ، وأن معناها فوق مستوى القاصرين ، ولذلك قلنا في كتاب آخر : **إنه لا سنة بغير فقه!!** . .

الزعم بأن كل غنى رذيلة زعم سخيف ، فالغنى المحقور هو المكسوب من سحت ، أو المكنوز لايستفيد منه مجتمع ، والأغنياء من هذا القبيل أعداء الله وأعداء الشعوب وإذا ملأوا جهنم فهي مصير عدل . .

أما تكوين الثروات من وجه شريف ، وإيتاء حق الله فيها ، وتطويعها لإعلاء الإيمان ، وحماية الثغور فهذا محض الإيمان .

وقد كان العشرة المبشرون بالجنة من هذا الصنف ، ولم يكن فيهم رجل مقل . .

والفقير الذي آثر القلة من حلال على الكثرة من باطل ، أو الذي ملك بجهده المبذول ولكنه ضحى بما يملك في سبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يسبق غنيا أو يسبقه غنى ليس إلينا ، وإنما يبت فيه علام الغيوب . .

ثم عندما يكون عامة من دخل النار من النساء فأين يذهب قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾[1] . .

الواقع أن عرض الحديث النبوي دون فقه صالح ، لون من تحريف الكلام عن مواضعه ، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرف! ونعود إلى حديث النساء ونقصان العقل والدين . .

صدر هذا الحديث يقي الأسرة الإسلامية شرًا يشيع بين الناس ، جرثومته امرأة تحيا على خير رجلها ، وتنكر فضله وتجحد حقه ، قد يخطئ الرجل ، وكل بني آدم خطاء ، وينبغي أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هي . . ولكنها بدل ذلك تغضب غضبا طائشا ، وتنسى في ثورتها كل شيء ، وتزعم أنها ما رأت خيرا قط من زوجها ، وقد تلعن نفسها وحظها وما حدث أو يحدث لها! . .

أليس من حق النبي ﷺ أن يحذر من هذا المسلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهن إن أصررن عليه يكن من أهل النار؟؟ . . ثم يستطرد الحديث **«.. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن»** ، والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فإن الرجل قد يستكين لامرأته ، والحق معه ، حتى يوفر الهدوء في بيته! ويمنع اللجاجة والخصام! وقد يلغي فكره الصائب من أجل ذلك الهدف مما قد يدفع بالمرأة المغرورة إلى مزيد من العنت ! . .

وهذه هزيمة ذي اللب كما عبر الحديث أو أولي الألباب كما نرى في مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رغبات النساء على عزائم الرجال . .

والمرأة - على ضعفها - تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها! قد تقول وما هذا الضعف؟ والجواب في تكوينها الخلقي ، فإنها تضحي عليلة أو شبه عليلة خلال الدورة الشهرية التي تعتادها ، وتؤثر في أعصابها وأفكارها ، وقد عذرها الله من أجل ذلك ، وأعفاها من بعض الفروض .

إن نفرا من المتحدثين في الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أمورا لا علاقة لها به ، فصاغ قاعدة كلية نشرها في طول الأمة وعرضها مفادها **«النساء ناقصات**

(١) الرعد : ٢٣ .

عقل ودين» ، وسواء كانت «أل» للجنس أو الاستغراق فهذه الكلية الشائعة فاسدة ، من ناحيتى العقل والنقل ، فقد اكتملت قديمًا وحديثًا نسوة أرضين الله ورسوله وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة .

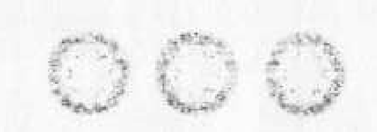
وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التى قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض ، وتناقض الأحاديث التى جعلت النساء شقائق الرجال! . .

وزاد الطين بلة فى تأليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحماقة ونقصان الدين بالمعصية ، وعد الأنوثة ترادف الخسة والهوان ، وهذا التفكير امتداد للجاهلية الأولى ، وهو بعض ما يشين النفسية العربية ، والإسلام برىء من هذا اللغو . .

ونسأل بعد ذلك البيان : أكل امرأة تتصف بالبخل؟ أكل امرأة تتصف بنكران الجميل؟ أكل امرأة تتهم بكفران العشير؟ ما أبعد ذلك عن واقع الحياة . .

لكن من المسلمين إلى الآن من يظن الغنى أخطر طريق إلى النار ، ومن يظن الأنوثة أسرع شىء إلى جهنم . .

ونريد أن نقى ديننا لوثات هؤلاء المفتين الكذبة ، وأن ننصف النصوص والأخبار ممن يتهجمون عليها دون وعى . .



٨٦. ما موقف الإسلام من المرأة فى ضوء الأوضاع السائدة فى مجتمعاتنا؟

إننى أسأل أولا :

هل عوملت المرأة فى العالم الإسلامى وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لمامًا . .

إن الحاكم فى مستدركه روى حديثًا موضوعًا حكم العالم الإسلامى أكثر من ألف عام ، يقول هذا الحديث : لاتعلموا النساء الكتابة ، ولاتسكنوهن الغرف . . أى إذا كان البيت مكونا من طبقات لم يجز إسكان النساء فى الطبقات العليا ، حسبهن ظهر الأرض أو تحتها إن أمكن !! . .

وتطبيقا لهذا الحديث المكذوب لم تفتح مدرسة لتعليم البنات فى قرية أو مدينة خلال القرون الماضية وأصبح تثقيف النساء من الفضول ، بل من المناكر المحظورة !! . .

وروى عبدالله بن عمر قول رسول الله ﷺ : **لاتمنعوا إماء الله مساجد الله** ، وفى رواية أخرى : ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد! فقال ابنه معترضًا التوجيه النبوى ، إذن يتخذنه دغلا ـ أى مهربا لاقتراف المفاسد ـ والله لنمنعهن .

فوكز عبدالله ابنه فى صدره ، واشتد عليه غضبه ، وقال : أقول : قال رسول الله وتقول : لا . . وقاطعه إلى آخر حياته . .

والغريب أن العالم الإسلامى لم يكترث لرواية ابن عمر ـ على صحتها ـ وتبع رأى الولد السيئ الأدب!! . .

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد . .

وبعد جهاد سنين طويلة للسماح بصلاة المرأة فى المسجد أمكن فتح أقل من ١٠٪ من بيوت الله لإماء الله ، أما الكثرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيهات أن يدخلها النساء . .

كنت فى دولة الإمارات المتحدة ، وشاركت فى قضية جديرة بالعرض ، نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو : قال الأستاذ مصطفى شردى : نحن فى إحدى أمسيات الثلاثاء بمسجد سعد بن أبى وقاص . انتهى المحاضر من حديثه وبدأ التحاور .

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات . تقول صاحبة السؤال إنها متزوجة منذ سنوات ، من رجل له أكثر من زوجة . وأن زوجها لا يسمح لها بزيارة أبيها ورعايته بين الحين والآخر ، على الرغم من أن الأب وحيد يحتاج إلى الرعاية والعناية ، والشعور ببر الأبناء لآبائهم ينغصها فهل تطيع الزوج وتهمل واجب رعاية الأب ، أم تخالف زوجها وتطيع قلبها وتكون بارة بوالدها؟ أثار السؤال الهمس ، ثم سكت الجميع انتظارًا لما سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل ، وكان من الواضح أن السؤال مس أوتارًا فى العديد من القلوب ، وأعتقد أن قلب المحاضر من بينها . .

حمد الرجل الله وأثنى على الرسول الكريم ، وتحدث عن التزام الزوجة بطاعة الزوج ، وكيف أن الإسلام شدد على الوفاء والتمسك بهذا الالتزام لصلاح الأسرة وسلامة المجتمع ، وطالب الزوجة بأن تضاعف جهدها لإقناع زوجها حتى يسمح لها برعاية أبيها ، إلا أنه اختتم إجابته برأى محدد اجتهد فيه فقال : إنه فى حال تمسك الزوج بموقفه القاسى الغريب دون مبرر مقبول ، فإنه على الزوجة أن تبادر إلى زيارة أبيها ورعايته وتقديم حنانها إليه ، لأن النص القرآنى بشأن بر الوالدين واضح وقاطع وصريح ، ولأن لهذا الزوج بالذات أكثر من زوجة تخدمه وترعاه إذا غابت عنه واحدة لأداء واجب البر والإحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها الله بأن ترعاه وتحسن إليه .

انتهى المحاضر من إجابته فاشتد الهمس! وبين الحاضرين عدد كبير من المتزوجين بأكثر من واحدة! وقد رأوا فى إجابة المحاضر تحريضًا للزوجات على عدم الالتزام بأوامر الزوج ، حتى ولو كانت متعارضة مع المنطق ومتضاربة مع المعقول! وبدأ فريق من الحاضرين يناقشون الرأى بأعصاب توشك على الانفلات! فقالوا : إن رأى المحاضر يتعارض مع تعاليم الإسلام! ولابد من التراجع عنه! لأن طاعة الزوج واجبة قبل أى اعتبار آخر ، وتمسك المحاضر برأيه وكادت تهب عاصفة من الاحتجاجات بسبب هذا الرأى ، وتتحول إلى مهاترة لايسمح بها . .

المهم أننا انصرفنا من المسجد ، وظل السؤال معلقا بين الآراء التى اختلفت عليه! . .

كان مطلوبا من الشيخ المفتى أن يغير فتواه ، وأن يحكم بحبس المرأة فى البيت ولو مات أبوها! وأيد ذلك الاتجاه أن متفيهقا ذكر حديثًا معناه أن الله رضى عن زوجة بقيت فى بيتها حتى توفى والدها فلم تعده فى مرضه الأخير ؛ لأن زوجها كان فى سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت ! .

قلت : هذا حديث مكذوب! واستغربت أن يطلب من امرأة ما باسم الإسلام أن تعق أباها ، وتقطع به صلتها ، وتدعه يموت مستوحشا لأن هذا حق رجلها! . .

وعندما تفقد المسكينة عاطفة البنوة فماذا يبقى من كيانها الإنسانى فى بيت الزوجية؟ إنها ستكون أسيرة فحل يملك أمرها وقهرها . . وحسب! . .

وفى الأرياف كان أغلب النساء يفقد ميراثه الشرعى ، فتقسم الأرض على الذكور وحدهم ، ويقول الإخوة الذين اجتاحوا الأرض : كيف نترك غريبًا ينزل بأرض أبينا؟ ويعنون بالغريب زوج أختهم! . .

فإذا حدث أن طالبت الأخت بنصيبها الشرعى قاطعها إخوانها إلى الأبد! . .

والأسر الشريفة لها تقليد عجيب ـ أعنى الأسر التى تدعى الانتساب إلى البيت النبوى ـ فالمرأة تموت عانسًا بائسة إذا لم يجئها الكفء من الأشراف ، أما الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكان! . .

ويظهر أن بنات العم سام أو العم جون لهن شرف يضارع شرفه ، أما النساء اللاتى نكبن بالدم الشريف ، فلا كفء لهن على المدى البعيد إلا الموت ! . .

وروى البخارى عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة . .

ويبدو أن هذا التقليد كان قصير العمر جداً ، فاستخفى فى أيام الحرب والسلم على سواء وتعتمد المستشفيات فى العالم الإسلامى اليوم على الممرضات الأجانب ، وإذا كان النساء قد منعن المساجد أفكان يؤذن لهن بالذهاب إلى ميادين القتال؟

ولا أريد أن يفهم غر أنى راغب فى نقل معالم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا . فهذه الحضارة تجمع خليطا من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة . .

وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ ، وسلفه الأول ، وهذا مسلك يعجز عنه أصحاب الخيال والشذوذ . .

لقد رأيت فى قضية المرأة أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية صححها الغرض المدخول ، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها . .

واستغربت وأنا أقرأ لبعض الفقهاء أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد الحرام أو المسجد النبوى!

وقلت : لو كان الأمر كذلك فلم أشرف الرسول على تنظيم صفوفهن فى مسجده؟ ولم جعل لهن بابا خاصاً بهن؟ ولم ذهب إليهن فعلمهن وحثهن على الصدقة ، ولم حذر «البعض» أن يحرص على القرب من صفوفهن؟ . .

الواقع أن المرأة أولى بها أن تصلى فى البيت إذا كانت مسئولية التغذية أو التربية تفرض عليها ذلك ، أما إذا تخففت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا يمنعها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلا أو نهاراً .

أى إن صلاة الجماعة ليست مؤكدة فى حقها كالرجال ، وليس يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العلمية والعبادية ، وتحويلها إلى مسخ لا مكان له فى دنيا ولا دين ، كما انتهت بتلك الأوضاع الاجتماعية فى العالم الإسلامى . .

عندما فتح النبى ﷺ مكة خرج النساء لمبايعته ، وتلقى تعاليم الإسلام منه ، ولم يحتبسن فى بيوتهن قعوداً عن هذا الغرض ، أى إن علاقة المرأة بالحياة العامة كانت قائمة ، وكانت من الناحية العملية ـ تسير فى خط يحاذى علاقة الرجل ، ولا يتطابق معه . .

وقبل فتح مكة اهتدت نساء كثيرات إلى الإسلام ، ورفضن البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة إلى المدينة . .

وحدث ذلك فى وقت كان المسلمون فيه ملزمين برد كل من يلحق بهم من مكة فاراً بدينه ـ تنفيذاً لمعاهدة الحديبية .

ولكن القرآن نزل يستثنى النساء من ذلك الحكم فقال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾[1] .

وورد أن عمر بن الخطاب كان فى ذلك الامتحان يحلف المرأة المهاجرة : الله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض! وبالله ما خرجت من بغض زوج! وبالله ما خرجت التماس دنيا! وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله» . .

ماذا ترى فى هذا القسم؟ . . وفيمن أدته؟ . . ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محترمة المسلك ، تحارب وتسالم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها؟ . .

أين هذه الشخصية التى واثقت الرسول فى مكة ، والتى هاجرت إليه فى المدينة ، من شخصية المرأة المسلمة فى القرون الأخيرة؟ . .

المرأة التى لاتعرف كتابًا ولا إيمانًا ولا صلاة ولا ثقافة عامة ، بل التى يعتبر من العيب الفاضح أن يعرف لها اسم ، أو يبدو لها شبح؟! لأنه لا وظيفة لها إلا إعداد الطعام ، وإرضاء البعل !! . .

(١) الممتحنة : ١٠ .

٨٧. ما أبعاد النشاط الاجتماعى للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهى؟

فى النشاط الاجتماعى للمرأة يمكن أن نعرف أبعاد هذا النشاط إذا ذكرنا أن قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشمل الرجال والنساء على سواء، وذلك ظاهر قوله تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[1].

إن الأمر والنهى والصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ليست حكرًا على أحد الجنسين، والزعم بأن المرأة تصلى وتزكى وتسكت فى ميدان النصيحة زعم باطل..

والذى حدث فى القرون الأخيرة، فى قرى كثيرة أن المرأة سقطت عنها هذه التكاليف كلها، فلا تصلى أو تزكى، إلا قبل الوفاة بفترة تطول أو تقصر بحسب الملابسات!..

على أن حراسة المجتمع تنقل من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، وهنا تبتعد المسافة بين أقوال الفقهاء فى الإمكانات التى تعطاها المرأة، ويبلغ الاختلاف حد التضاد..

فابن جرير الطبرى يجيز للمرأة القضاء فى كل شىء يجوز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء!.

ويقول الأحناف ـ كما جاء فى البدائع ـ إن الذكورة ليست شرطًا لتقلد منصب القضاء فى الجملة، لأن المرأة من أهل الشهادة فى الجملة، إلا أنها لا تقضى فى الحدود والقصاص لأنها لا شهادة لها فى ذلك، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة!

وهنا نسأل: ما قيمة شهادة المرأة فى الحدود والقصاص؟ والجواب أن جمهور الأئمة يردها!.. جاء عن الزهرى ﷺ، مضت السنة من رسول الله والخليفتين بعده أنه لا تجوز شهادة النساء فى الحدود والنكاح والطلاق، وفى رواية أخرى والدماء!..

(١) التوبة: ٧١.

ويرفض ابن حزم هذا الكلام كله! ويجيز شهادة النساء فى كل ما ذكر! ويقول فى حديث الزهرى: إنه بلية، وإن إسناده منقطع، وهو من طريق إسماعيل بن عياش ـ وهو راو ضعيف ـ عن الحجاج بن أرطاة ـ وهو هالك ـ تلك قيمة حديث الزهرى عنده..

ويرى ابن حزم قبول شهادة المرأة فى كل قضية بعد مضاعفة النصاب، فيقبل فى حد الزنا ثمانى نساء بدل أربعة رجال!

والدليل الذى يعتمد عليه ابن حزم هو العموم الظاهر فى حديث مسلم عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل**»، وما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال فى حديث: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلنا: بلى**»..

فقطع رسول الله بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل.. قال ابن حزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل ـ حيث يقبل رجل لو شهد ـ إلا امرأتان، وهكذا مازاد..

ويفسر ابن حزم قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[1].

فيقول: هذا متوجه بعمومه إلى الرجل والمرأة والحر والعبد، والدين كله واحد! لا حيث جاء النص بالفرق بين المرأة والرجل، وبين الحر والعبد، فيستثنى من عموم إجمال الدين!..

وقبل ذلك يقول ابن حزم: وجائز أن تلى المرأة الحكم، وهو قول أبى حنيفة، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولى الشفاء ـ امرأة من قومه ـ السوق..

فإن قيل: قد قال رسول الله ﷺ: «**لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة**» قلنا: إنما قال رسول الله فى الأمر العام الذى هو الخلافة.

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**المرأة راعية على مال زوجها وهى مسئولة عن رعيتها**». وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص يمنعها من أن تلى بعض الأمور..

(١) النساء: ٥٨.

وإذا كانوا يولون النساء بعض المناصب المهمة فليفعلوا فما أستطيع باسم الإسلام أن أحظر عليهم ذلك ، إن الحظر عندنا رأى مجتهد ، وليس وحيًا حاسمًا .

الشيء الذى أتشبث به فعلا وتركًا ما انعقد إجماعنا عليه .

أما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة ، وعرض بعض التقاليد البدوية أو الحضرية على أنها الإسلام ، فهذا ظلم للإسلام ، وربما كان صدًا عن سبيل الله . .

وما أقوله هو ما كان عليه سلفنا الأول الذى نشر الدين عقائد وعبادات وأخلاقًا وقيما جوهرية . . وقلما اكترث بالتوافه والأشكال . .

وأمر آخر أريد التنبيه إليه . أرى مع سير الزمن أن نغلغل النظر فى الاجتهادات الفقهية لنعرف بدقة نتائجها التطبيقية .

إن الأئمة الأربعة أمضوا الطلاق الثالث ثلاثًا ولو بكلمة واحدة ، وغبرت على ذلك قرون ، ثم جاء ابن تيمية وغيره فجعلوا الثلاث واحدة . .

وكنت فى مصر أرقب أثر الطلاق على كيان الأسرة فوجدت صدوعا رهيبة فى هذا الكيان جعلتنى أوثر فقه ابن تيمية وغيره ، وأؤيد تحول المحاكم الشرعية عن رأى الأئمة .

لقد تركوا اجتهادًا إلى اجتهاد ، ولا حرج ، فالعصمة للوحى وليست لبشر ما . .

وما يقال فى قضايا الطلاق يقال فى معاملات أخرى تجارية وزراعية ، كانت مسرحًا رحبًا لأنصار الفقهاء الأقدمين ، أنه لا قداسة لاجتهاد ، والخلود لكتاب الله وسنة رسوله .

وبديه أننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله ، ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين ومن لا قدم لهم فى علوم الشريعة . .

وبديه أيضًا أننا نضاعف الأسوار حول المقطوع به ، ونستميت دون أن يمسه أحد . .

وقضايا المرأة فيها نصوص قطعية ، وفيها اجتهادات فقهية اكتنفها الخطأ والصواب .

ويؤسفنى القول بأن الجراءة على النصوص المستيقنة كان سببها تشبث المقلدين البله بأفكار رديئة عن حقوق المرأة العادية والعبادية . .

إن الله أمر بالغض من البصر ، ووجه هذا الأمر للمؤمنين والمؤمنات ، فجاء من أمر بمنع النظر أصلا . .

فلا يجوز للمرأة أن ترى أو تُرى ، ولتحقيق ذلك تم حبسها أبدا فى البيت . .

والفقهاء متفقون على أن شهادة المرأة مقبولة فى المعاملات المالية لقوله تعالى :

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾[1] . .

وقد نقلت فى أحد كتبى كلامًا للأطباء عن اعتلال مزاج المرأة وبدنها عند الدورة الشهرية وقلت : لعل ذلك سر توكيد خبرها بأخرى معها ، والضلال هنا يعنى الذهول والشرود .

وأبادر إلى القول بأنى لست ظاهريًا ، لكنى أتبع الدليل حيث كان ، وكثيرًا ما أرفض اجتهادات لابن حزم ولغيره من أئمة الفقه ، لأن وجهات نظر أخرى بدت لى أرجح .

وغايتى خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التى بلغتها الإنسانية كلها فى هذا العصر الخطير . .

إن تعاليم الإسلام قسمان ، قسم مقطوع به ، لا مكان لخلاف فيه . .

وهذا القسم هو صلب الدين ومعقد أموره ، ولا أثر لاختلاف الأمكنة والأزمنة فيه ، والدعوة عامة إنما تكون إليه ، والمفاضلة بيننا وبين غيرنا إنما تكون عليه . .

أما القسم الآخر فهو القضايا الظنية والمسائل الخلافية .

إن المجال رحب هنا للأخذ والرد والفعل والترك .

وقد رفض أولو الألباب أن يكون رأى مجتهد ما بمنزلة الوحى المعصوم فى الأخذ به والتعويل عليه .

ومن ثم يجب ترك الناس أحرارا فى التحول إلى غيره لسبب أو لآخر .

ولتوضيح ما أعنى أريد ـ وأنا أعرض الإسلام فى بلاد أخرى ـ ألا أغير سلوكا فى هذه البلاد يرى بعض فقهائنا ألا جرح فيه . .

فإذا كانوا يقتنون الكلاب فليفعلوا فمالك بن أنس يرى الكلاب طاهرة الريق والعرق ، وقد كان للفتية المؤمنين من أهل الكهف كلب يلازمهم فى أحلك الأوقات .

وإذا كانوا يسمعون الموسيقى فليفعلوا ، فالغزالى وابن حزم وغيرهم يرون سماعها ولا مساغ لزجرهم عن أمر ليس لدينا قاطع فى منعه . .

(١) البقرة : ٢٨٢ .

ونشأ عن ذلك الغلو قتل إنسانية المرأة وإضاعة حقوقها الدينية والمدنية . .

ثم جاء من يعالج هذا العوج ينقل تقاليد أوربا وأمريكا ، أى استبدال داء بداء . .

ونحن نأبى غباوة هؤلاء وانحلال أولئك!! . . ونريد الأوضاع التى عرفها العهد النبوى والفقه الذكى الذى يدرك هذه الأوضاع . .

إن محدثًا جليل القدر كأبى عبدالله البخارى نظر إلى السنن الصحاح ثم استنتج منها دون تكلف ولا تخوف أحكامًا يرفضها اليوم بعض الناس ، ففى كتاب المرضى يذكر إمام المحدثين هذا العنوان «باب عيادة النساء الرجال ، وعادت أم الدرداء رجلا من أهل المسجد من الأنصار . . إلخ» . .

وفى مكان آخر يثبت عنوانا آخر «باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال» و «باب غزو المرأة فى البحر» . . إلخ .

ولو أن امرأة طلبت شيئًا من ذلك فى بعض البيئات التى تحترف التدين لضربت حتى الموت ، إنهم يقرءون البخارى للبركة لا للفقه . .

وقد يبسطون ألسنتهم فينا بالقدح ، لأننا أحيينا هذه الحقائق من ديننا السمح . .

ومع ماذكرنا فنحن نؤكد أن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها ، وأن حق زوجها وولدها أسبق من شتى الحقوق الأخرى ، وقد قرأت لوزيرة فرنسية ، وأخرى إنكليزية أن عمل المرأة فى بيتها هو رسالتها الأولى . . وهذا تفكير جيد . فإن منصب «ربة البيت» منصب كبير وهو فى نظرى يحتاج إلى مؤهلات رفيعة . .

وإنشاء الحياة وفق المقررات الإسلامية يتطلب حظوظًا مضاعفة من العلم والخبرة ، فكيف توائم بين شتى الأوضاع والغايات؟ . .

ذاك ما يتطلب حسن التفكير والتنسيق . .

٨٨. ما نظرة الإسلام إلى الأسرة، وما عمل المرأة فى بنائها؟

الذين خبروا الحياة فى أوربا وأمريكا يؤكدون أن الأسرة وهم لا حقيقة له ، وأنها فى أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه مما يجب أن تقوم به لإنشاء أجيال أزكى وأقوم . .

إن البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والإناث توزعتهم ميادين العمل والعلم ، حتى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضانة ، وانشغل كل امرئ - بعد - بما انشغل به . .

وهم يسمعون عن جو الأسرة فى بلادنا ، وربما حلمت بعض المراهقات أن تحيا فيه ، ولكن الهوان الفكرى والنفسى الذى يلف المرأة فيه يصرف الكثيرات عن التعرض لمآسيه .

وعندى أن المثقفة التى تحيا خارج بيتها ليست خيرًا من الجاهلة التى تعيش داخل هذا البيت . .

ألا فلنعلم أنها نعمة حقيقية أن تمتد الحياة من الآباء إلى الأولاد إلى الأحفاد ، وأن تكون الأسرة المؤمنة المستقرة هى المهاد الوثير لهذا الامتداد .

وليس الإنتاج الحيوانى سر هذه النعمة ، إن العظمة هنا فى توارث العقائد ، وانتقال التقاليد الصالحة من جيل إلى جيل . .

إن الأسرة هنا حصن الدين وسياج مبادئه وعباداته ودور المرأة وأجرها كدور الرجل وأجره سواء بسواء .

وعن عظمة هذه النعمة يقول الله سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[1] .

إن الرجال هم حملو الأعباء الثقال فى قافلة الحياة السائرة ، سواء كانوا أساتذة أو ساسة ، أو أجراء أو باعة فهم يعودون إلى بيوتهن فقراء إلى المشاعر الدافئة والعون المبذول . .

(١) النحل : ٧٢ .

والبيت الذى تكون قاعدته امرأة تنفح هذه المعانى ، بيت رفيع القدر ، بل هو بيت يحتوى على أثمن الكنوز .

والتقاليد الغربية هزت كيان الأسرة ، وهى تقاليد تجتاح العالم ، أما التقاليد الإسلامية فالعارفون بها قلة ونشرها يلقى مقاومة عنيدة خصوصًا من جهلة المتدينين . .

من أجل ذلك رأيت لفت النظر إلى أن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف .

وقد تخرج المرأة من بيتها وراء أعمال مشروعة ، بيد أن هذه الأعمال مهما سمت لا يجوز أن تجور على عملها الأول الذى لا يشركها فيه أحد . .

روى ابن عبد البر فى كتابه «الاستيعاب» أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبى ﷺ فقالت : بأبى أنت وأمى يارسول الله! أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة . فآمنا بك وبإلهك ! . إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم ، وأنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل . . وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مجاهدًا ، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفنشارككم فى هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبى إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : «**هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن مسألة فى دينها من هذه؟**» . فقالوا : يارسول الله ، ماظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا . . فالتفت النبى ﷺ إليها وقال : «**افهمى أيتها المرأة، وأفهمى من خلفك من النساء، إن حسن تبعل المرأة لزوجها** . يعنى قيامها بحقه وإحسانها لعشرته . **وطلبها مرضاته واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله** . .»

على أن هناك ميادين للأعمال لابد أن يكثر فيها النساء ، أولها الميدان الطبى ، فيجب أن تكون هناك طبيبات ماهرات فى كل ناحية من نواحى الطب ، والأشعة ، والصيدلة ، والولادة والتمريض . .

ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعلياها .

ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النساء إلا أن يكون لأسباب فنية أو مواصفات خاصة .

عندئذ ينطبق التخصيص على الرجال والنساء جميعًا ، فيوجه كل أحد إلى ما يناسب قدرته وخبرته .

إن النساء فى عالم الكفر الشيوعى يغزون الفضاء فلا يسوغ اجترار الإسلام ليمنع المرأة من علم تحسنه . .

والنساء فى عالم التثليث يشتغلن بالتبشير والاستشراق فلا يسوغ تسخير الإسلام لمنع النساء من أعمال يجدنها ويجدين فيها . .

إن القماءة الفقهية عند بعض المشتغلين بالعلم الدينى أحرجت الإسلام كثيرًا ، ومكنت خصومه من خناقه! وأذكر وأنا طالب فى معهد الإسكندرية ـ من خمسين سنة ـ أن الدكتور طه حسين فتح فصلا للطالبات بكلية الآداب التى كان عميدًا لها . .

وحدث هيجان هائل لفتح الجامعة أمام المرأة وبعد سنين طوال ، طوال ، فتح الأزهر كلية البنات . . لقد وصل متأخرًا كثيرًا . .

ما السبب؟ إنها القماءة الفقهية عند بعض المتحدثين باسم الإسلام ، ولما مشوا فى الطريق كانوا يمشون منهزمين ، فقبلوا أمورًا وصورًا لا ريب فى أن الإسلام يرفضها .

عندما يدعم الإسلام مكانة المرأة يحصنها من الصور الحيوانية التى أبرزتها فيها الحضارة الحديثة ، وجعلتها محورًا لإثارات متصلة تزلزل العفة وتهيج الغريزة . .

الدين ينشد الصون ويؤثر الاحتشام والحضارة الحديثة تنشد التبرج وتدفع إلى الإغراء ومع ضعف اليقين وحب الحياة العاجلة أخذ السعار الجنسى يشتد ويفرض رغائبه ، حتى فقد الاتصال الحرام دمامته ، وأمسى كأنه حاجة تلبى دون حرج كبير!! . .

والدين يرفض أى خلوة بين رجل وامرأة ، وهى تقرب بينهم فى الأعمال الجادة والهازلة . .

وكثيرًا ما تساءلت : لماذا تكون «للمدير» سكرتيرة خاصة؟ . .

لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة فى الطائرات ، وحدهن؟ ويقضين فى الجو وفى الفنادق ليلهن ونهارهن؟ . .

إن النساء يحشرن فى أعمال كثيرة لا معنى لها . . وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع للفور ، وسيكون عملها فى أى موقع مضبوطا بآداب الشرع وحدوده . . ذلك ، ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة ، وصاحبة منصب منتجة . .

إن ذلك قد يقع على ندرة ، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شئون بيتها وأولادها . .

إن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدنية مشرقة طاهرة أمر ميسور . .

ويحتاج ذلك إلى محو فكرة تحقير المرأة وجعلها متهمة حتى تثبت براءتها . . وهى فكرة تسيطر على بعض المتحدثين فى الدين وتجعل فتاواهم أقرب إلى اللغو منها إلى الصدق .

إن القول بأن المرأة هى التى أخرجت آدم من الجنة تزوير على الإسلام ، والزعم بأنها لا تزال تقوده إلى النار تزوير كذلك . .

والتصور الإسلامى كما أثبته القرآن الكريم : ﴿ لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾[1] .

إننى غيور على الأعراض كأشد المتزمتين ، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان .

فالبون بعيد بين تكوين العقل والضمير بالعلم والتقوى وبين حبس الأجساد فى قفص من حديد .

والإسلام قاد المرأة إلى المسجد لتسمع الدرس ، وتسجد لربها ، وبذلك صقل روحها وفكرها ، وفى المسجد كانت ترى الإمام وربما علقت على ملابسه![2] . وكانت ترى المدرس وربما ناقشت ما يقول . .

أما عقلية السجان فأساسها أن المرأة لا تُرى ولا ترى ، وإذا كان المسجد مظنة ذلك فلا ذهاب إلى المسجد! وهذا هو الإسلام فى فلسفة السجان .

عندما آثر الناس السيارة والطيارة على الخيل والبغال والحمير لم يكن ذلك تحقيرًا للمواصلات الإسلامية الرديئة ، فما علاقة هذه المواصلات المهجورة بالإسلام؟ . .

وعندما يترك الناس التقاليد التى وضعتها عقلية السجان ، فهم لم يتركوا الإسلام قط ، وإنما تركوا أساليب بعض الناس فى الحياة . .

والحكم هو كتاب الله وسنة رسوله أولا وآخرا . . والمشكلة تجىء من طريقة فهم البعض للنصوص والآثار . .

روى البخارى ومسلم وأحمد عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : **«اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها فقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»** .

(١) آل عمران : ١٩٥ .

(٢) روى البخارى أن امرأة تندت بثوب الإمام لأنه مشقوق!

ورواية أحمد فى مسنده : **«اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»** .

إن جماهير من المتصوفة اعتمدوا على الشق الأول من الحديث فحاربوا المال ، وحقروا الغنى حتى طلعت القرون الأخيرة على المسلمين وهم صعاليك الأرض . .

وجماهير أخرى من قصار النظر والباع عدت الأنوثة لعنة ، وجعلت جمهور أهل النار من النساء ، فهن حبائل الشيطان وشباك المعاصى . .

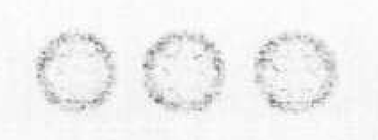
وهذا المنهج فى فقه الأمور لا وزن له ، وأصحابه لا علم لهم لا بكتاب ولا سنة . .

بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه ، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية فى أغلب المجتمعات ، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التى تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق . .

إن أفلاطون فى مدينته «الفاضلة» يجعل المرأة مشاعا بين الآخرين ، فما تكون إذن المدينة الدنسة . .

على أن عقلية السجان هى الأخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب . .

وتعاليم الإسلام الصحيحة هى الأمل فى بناء عالم متراحم مصون؟ . .



٨٩. يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأى؟

فى العصر الأول وجدنا عمر بن الخطاب - وهو المشهور بغيرته - يولى على سوق المدينة الشفاء بنت عبدالله المخزومية قضاء الحسبة ، وهى وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة . .

وذكر ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير النساء فيمن يخلف عمر بعد مقتله - من الستة المرشحين - فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره . .

كانت النساء تستشار! ولم لا وقد استشار النبى أم سلمة عندما تقاعس الناس عن التحلل من عمرة الحديبية .

أما المرأة المسلمة فى الأعصر الأخيرة فقد ماتت أدبيًا وراء تقاليد جاهلية ليست من الدين حتى دهمتنا الحضارة الحديثة بنازعها المادية ومسالكها الإباحية ، فلم يدر أهل الدين مايفعلون . . لقد طالعت فى السيرة النبوية أحاديث تبرز المجتمع الأول فى صورة أرحم وأرحب من الصورة التى يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم ، وهى صورة قاتمة موحشة .

روى مسلم فى صحيحه أن جارا فارسيا للنبى ﷺ كان طيب المرق ، فصنع لرسول الله - طعامًا - ثم جاء يدعوه فقال : وهذه - لعائشة - فقال الفارسى : لا فقال رسول الله ﷺ : لا! أى لا أذهب معك وحدى . فعاد يدعوه . فقال رسول الله ﷺ : وهذه . . قال : لا . . فقال رسول الله : لا . . ثم عاد يدعوه - للمرة الثالثة - فقال رسول الله : هذه! قال الفارسى : نعم . فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله[1] . .

وروى البخارى أن أبا سعد الساعدى دعا النبى ﷺ لعرسه ، وأصحابه رضى الله عنهم ، فما صنع لهم طعامًا ولا قربه إليهم إلا امرأته أم سيد ، فقد بلت من

(١) ربما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب ، لكن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين ، كما قرر ذلك المحققون ويبدو أن الفارسى المضيف كان قد أعد الطعام لواحد فقط ولذلك تحرج من قدوم ضيفين معًا . . ولم يدر أن طعام الاثنين يكفى ثلاثة ، وأن الرسول الكريم يريد إيناس زوجته على مائدة فارسية .

الليل تمرات فى تور - إناء من حجارة - فلما فرغ النبى ﷺ أماثته له - أى هرسته بيدها - فسقته تتحفه بذلك - وكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهى عروس .

وبديه أن ذلك الاختلاط المحدود تم فى إطار تعاليم الشريعة التى توجب على المرأة المتحشمة الكاملة . .

والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقد زعم البعض أن النقاب كان مضروبًا على الوجه ، فلم يبد من المرأة شيء قط . .

وهذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثنى عشر حديثًا فى أصح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبى ﷺ ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شيء من ذلك ، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون . .

ومع ذلك فإن ناسا لا فقه لهم ولا تقوى يسلقون السوافر بلسان حاد ، مع أنهن تامات الحشمة ، ويرون انسياقا مع أفكار غبية أن وجه المرأة ويديها وصوتها عورة! . .

مات سعد بن خولة فى السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملا ، وشاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة - قبل أربعة أشهر وعشرة أيام - فتركت المرأة إحدادها ، وتجملت للخطاب - اكتملت وتخضبت وتهيأت - فلقيها رجل اسمه أبو السنابل ، وأنكر عليها ذلك وقال لها : لعلك تريدين الزواج؟ بعد أربعة أشهر وعشر ! . .

قالت : فأتيت النبى ﷺ ، وذكرت له ما قيل . . فقال لها : قد حللت حين وضعت . . والقصة موجودة فى الصحيحين ومسند أحمد ، وهى كقصص وقعت فى آخر حياة رسول الله ﷺ ، ولا مساغ للزعم بأنها قبل الحجاب . .

إن شيئًا آخر غير دين الإسلام يراد فرضه على الأمة الإسلامية . .

والذين يريدون ذلك يخضعون لدوافع نفسية لا لشواهد علمية . .

والشيء الوحيد الذى يذكرونه هو التأسى بأمهات المؤمنين ، ونقول : لو كان التأسى بهن مطلوبًا فى هذه القضية فلم تركه الرسول وصحابته ، ولم تركوا الوجوه مكشوفة دون اعتراض؟ .

والواقع أن تنظيم البيت النبوى خضع لظروف خاصة ، وقد صرح القرآن بذلك عندما قال لزوجات الرسول : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾[1] . .

(١) الأحزاب : ٣٢ .

إن تحريم الزواج منهن بعده ﷺ ، ومضاعفة الثواب أو العقاب لهن ، تشريع خاص بهن . .

ومعروف أن البر والفاجر كانوا يطرقون باب النبى ﷺ ، كيف لا وهو محط الرجال ومقصد الوفود من كل فج؟ . .

وفى بعض البدو جراءة على النظر والقول ، وبين الأعراب بقايا جاهلية فى التطلع إلى النساء ، فكان من إعزاز الله لنبيه أن نزلت آية الحجاب فى سورة الأحزاب تمنع الدخول عليهن بتة ، فلا يراهن أحد إلا ما استثنى الله عز وجل فى قوله : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾(1) . .

وظاهر أن هذا التنظيم خاص بأمهات المؤمنين ، وأنه بعد نزوله رئى النساء المؤمنات مقاتلات فى حنين ، ورئين فى مناسبات كثيرة فى المسجد وغيره سافرات الوجوه ، فما أنكر عليهن أحد ، ومن الناس من يحظر رؤية النساء للرجال والرجال للنساء مطلقًا . واستدل لرأيه بما روى من كراهية الرسول ﷺ أن يرى نساءه عبدالله بن أم مكتوم ، ويرى ابن حجر أن ذلك كان لسبب خاص ، هو أن عبدالله أعمى لا يحسن تعهد ثيابه ، وستر بدنه كله . .

وهو تعليل اضطر إليه ابن حجر لما رأى الحديث يخالف الصحاح .

إن ابن حجر رد حديث «أفعمياوان أنتما» بطريقته الخاصة ، فتغاضى عن السند ، وتأول المتن . . لكن ابن العربى رفض الحديث سندًا ومتنًا ! . وقال عن نبهان . . راوى هذا الحديث أنه مجهول . . ونبهان هذا كان خادمًا لأم سلمة رضى الله عنها ، ولم يعرف بين أهل العلم بشيء وحديثه إذا كان قد خالف ما رواه البخارى فى رؤية عائشة للأحباش عند عرضهم الرياضى ، فهو قد خالف واقعة أخرى رواها مسلم أيضًا تتصل ببنت عم لابن أم مكتوم أمرها النبى ﷺ أن تقضى عدتها عنده . .

روى مسلم عن فاطمة بنت قيس أن زوجها عمرو بن حفص طلقها البتة ـ طلقة ثالثة ـ فجاءت رسول الله فذكرت ذلك له ، فأمرها أن تعتد فى بيت «أم شريك» ثم قال : تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده . .

(1) الأحزاب : ٥٥ .

وفى رواية انتقلى إلى أم شريك ـ وهى امرأة غنية من الأنصار واسعة النفقة فى سبيل الله ، ينزل عندها الضيفان ـ فقلت : سأفعل . . ثم بدا لرسول الله أمر آخر ، فقال : لاتفعلى ، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان ، فإنى أكره أن يسقط خمارك ، أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ماتكرهين ، ولكن انتقلى إلى ابن عمك عبدالله بن أم مكتوم ، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك ـ الوضع الإنزال والكشف ـ فانتقلت إليه ـ فقالت : فلما انقضت عدتى سمعت نداء المنادى : الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد ، فصليت مع رسول الله ، فلما قضى صلاته جلس على المنبر فقال : إني والله ماجمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تميما الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء وبايع وأسلم . . . إلخ . .

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى :

وجه دلالة الحديث على أن الوجه ليس بعورة ظاهرة ، وذلك لأن النبى ﷺ أقر فاطمة بنت قيس على أن يراها الرجال وعليها الخمار (وهو غطاء الرأس) فدل هذا على أن الوجه منها ليس بالواجب ستره كما ستر رأسها ، ولكنه ﷺ خشى عليها أن يسقط الخمار عنها فيظهر منها ما هو محرم بالنص ، فأمرها عليه السلام بما هو الأحوط لها وهو الانتقال إلى دار ابن أم مكتوم الأعمى قال : «وهذه القصة وقعت فى آخر حياته ﷺ لأن فاطمة بنت قيس ذكرت بعد انقضاء عدتها سمعت النبى ﷺ يحدث بحديث تميم الدارى أنه جاء وأسلم ، وإسلام تميم كان سنة تسع للهجرة ، فدل ذلك على تأخر القصة عن آية الحجاب ، فالحديث إذن نص كذلك على أن الوجه ليس بعورة» . .

فى السنة العاشرة للهجرة ، وبعد نزول آية الحجاب بست سنين وقعت قصة «الخثعمية» وهى امرأة جميلة الوجه جاءت إلى النبى ﷺ يوم النحر وهو فى حجة الوداع تريد أن تستفتيه فى شأن ما من مناسك الحج . .

قال الرواة : وكان الفضل بن العباس رديف النبى ﷺ ، فلفته جمال المرأة ، وقد حدث الفضل عن نفسه ـ كما روى أحمد فى مسنده ـ «فكنت أنظر إليها . . فنظر النبى ﷺ فقلب وجهى عن وجهها ، حتى فعل ذلك ثلاثا وأنا لا أنتهى» ! .

وأصل هذه القصة ثابت فى البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى ، كانت المرأة وضيئة الوجه ، لم يرو أحد عن صاحب الرسالة صلوات الله عليه أنه زجرها عن

كشف وجهها ، أو اتهمها ببث الفتنة وقلة الحياء! . ولكن الملكيين أكثر من الملك يريدون الاستدراك على المشرع الأعظم ، وإطلاق ألسنتهم فى الناس ويريدون طى هذه السنن الصحاح ، وإبراز آثار منكرة تفيد أن المرأة تغطى عينًا وتبدى أخرى! . . أو تغطى جسدها كله من الوجه إلى القدم ، فلا يرى منها شىء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الآخر عورة!! . .

إن هذا الغلو أعقب ـ على امتداد القرون ـ آثارا اجتماعية سيئة قتلت شخصية المرأة ، وإنسانيتها وأساءت ولا تزال تسىء إلى الإسلام . .

يقول البعض : لا بأس أن تضع المرأة نقابًا على وجهها اقتداء بنساء الرسول ﷺ . .

نقول : ولا بأس أيضا من تحريم الزواج على المرأة إذا مات زوجها امتدادًا لهذه الأسوة . .

إننا نريد التزام خط إسلامى صحيح لا علاقة له بتبرج الغربيات ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن . .

إن الغضب لله على العين والرأس . . أما الغضب لتقاليد ملصقة بالوحى دخيلة عليه فشىء لا نكترث له ، ولا نخشى أصحابه . .

قال لى صديق : إن الطريقة التى تعرض بها قضايا المرأة تخالف تقاليد قوية ومذاهب مستقرة ، وهذا يسىء إليك وقد يعوق آراء صالحة شرحتها للناس فى ميادين أخرى . .

قلت : نصيحة مقدورة! . . وأحب أن أذكر لك ما عندى لتدرك ما هنالك .

إننى فى هذه القضية وفى غيرها أرفض الأحاديث الموضوعة والواهية ، ولا أحترم التقاليد التى تبنى عليها . . إن العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه ، والأساس المرعى هو كتاب الله وسنة رسوله . .

وإننى أعوذ بالله أن أكون قد خرجت عليهما ، إن المتواتر يحكمنى والصحيح يلزمنى . . أما المرويات الأخرى فلا اكتراث .

ومازلت أذكر أن رئيس جماعة إسلامية كتب مقالا ضدى تحت عنوان «مدير المساجد يكذب رسول الله»!! . .

وقد اقشعر جلدى من التهمة ، فأنا أحد الأرقاء لجميل محمد ، الشاعرين بعظمته ، المتابعين لسيرته ، فكيف أكذبه!! ومحور المقال حديث منكر يقول إن المرأة لا ترى أحدًا ولا يراها أحد . .

والذى يصدق هذا الكلام يجب أن يكذب المتواتر والصحيح فى قضايا المرأة كلها! وهذا مافعله البعض وأقام بعدئذ تقاليد فرضها على الدين فرضا ، كيف احترام هذه التقاليد؟ . .

وهناك آثار صحيحة السند ، شرحها البعض من زاوية خاصة ، ولهم ما مالوا إليه من فهم وإن كان معتلاً ، وليس لهم إلزام غيرهم . . فقوله تعالى :

﴿ لا يُبْدِين زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾(١) .

فسره أولئك بأن الزينة لا تظهر أبدًا ، ولا يجوز إظهارها بتاتًا ، وإن الاستثناء هو لما يقع أحيانا من مجاذبة الريح للنقاب المضروب على الوجه . .

إن كشف الوجه كان العادة السائدة ، وربما تنقبت بعض النساء ، ولم يحدث أن النبى ﷺ اعترض امرأة سافرة ، والسنن شاهد صدق على ذلك ، وكان مجتمع الصحابة قائمًا على هذا الوضع دون تكير . .

وتأمل فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده ـ والحديث صحيح ـ قال عن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر رضي الله عنه وهو بالربذة ـ أيام عثمان ـ وعنده امرأة سوداء مشعثة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق ـ الطيب ـ فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى هذه السويداء؟ . . تأمرنى أن آتى العراق ، فإذا أتيت العراق مالوا على بدنياهم . . وإن خليلى ﷺ عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقًا ذا دحض ومزلة ، وإنا إن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار أحرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير . .

يعنى إذا كنا خفافًا فى الدنيا قدرنا على النجاة من هذا الطريق الزلق ، أما إذا أوقرنا أحمالها وأثقلنا مآربها فسنهوى .

وأبو ذر يشكو امرأته لبعض صحبه ، لأنها تشير عليه بالارتحال إلى العراق ، وقد رأى الصحب المرأة ووصفوها بما قرأت . .

أعرف أن هناك من يرى أن المرأة لا يجوز أن يلمح شبحها فى مكان! فما الذى يجعل هذا الكلام هو دين محمد ، إنه أمر بالغ السخف أن يرى أحد رأيا ثم يقول : هذا هو الدين ، لا دين غيره . .

نعم قد قال : هو وجهة نظر فى فقه ما ورد من آثار .

ولا أحارب هذا ، وإنما أضم إلى الموضوع حقيقة أخرى ليست خاصة بالميدان النسائى ، وإنما تعم كل ميدان اختلفت فيه آراء المجتهدين . .

(١) النور : ٣١ .

هناك خلافات لايضر بقاؤها إلى قيام الساعة ، فليقنت من شاء فى صلاة الفجر أو لا يقنت ، إن مذاهب المجتهدين هنا تترك آثارًا مهمة فى مسيرة المجتمع .

لكن هناك من يرى أن الخمر والحشيش والأفيون سواء فى الحرمة ، وهناك من يفاوت بينها ، بل هناك من يبيح بعضها! وقد شعر أولو الألباب أن الأمم التى تقبل على المخدرات أسوأ حالا وأضعف إنتاجًا من الأمم التى تشرب المسكرات . .

فهل يقبل من أتباع بعض المذاهب الفقهية القول بأن الإسلام يبيح كذا من المخدرات فلا تحرموا ما أحل الله؟ . .

لماذا لا يسكت من اعتنقوا وجهة نظر ما إذا كانت الأيام قد كشفت أن وجهة نظرهم سيئة؟ . .

ولماذا يريدون جعل ما يعتنقون دينًا لايمس؟! ولحساب من هذا التعصب والحماس؟!

الأمر كذلك فى قضايا المرأة . . إن ترددها على المساجد وتزودها بالعلم سنة يساندها التواتر . .

ثم نبتت وجهة نظر أخرى فحرم عليها الذهاب إلى المساجد ، وحظر عليهم التعلم . .

وهذه الوجهة لاتعدو أن تكون فهما رديئًا لأثر ما أو تباعًا أعمى لحديث موضوع . .

ثم انهار العالم الإسلامى كله ، وأصبح رجاله ونساؤه أمثلة مزرية للتخلف ، فإذا جاء من يعيد الكرامة الأدبية والعقلية للمرأة . ويعيد الأمة إلى معالم سلفها الأول . قيل له : لا! . .

والدليل؟ فقه مغشوش! أو نقل مريض ، أو رأى امرئ يريد التقدم بين يدى الله ورسوله ليجعل من سلوكه وإدراكه النهج الذى يفرض على الكتاب والسنة لا نهج غيره . .

إننا نؤكد أن النصوص على العين والرأس ، وأن الخلاف الفقهى وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لإحداها ، وأن من حق المسلمين فى أى بلد أن يدعوا رأيا تبين من تطبيقه أنه حطهم فى الداخل وأزرى بهم فى الخارج . .

ولا يوصف أبدا ترك هذا الرأى بأنه ترك للدين ، بل إن أغلب ما يشيع بين المسلمين فى المجال الإنسانى مخالف للدين ، وليس وراءه اتباع محترم . .

من أجل ذلك كله أرفض عرض الإسلام فى هذا العصر على أنه نقاب ، أو أنه رفض لشهادة المرأة وعملها فيما تصلح له ، أو رفض لقيادتها السيارة مثلا ، ورفض لاضطلاعها بمهام تطيقها مع تأكيدى أن عمل المرأة فى الأسرة يصدر كل أعمالها الأخرى ويحكمها . .

٩٠. يرى البعض أن هناك مملكة فى عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد. إلخ تؤثر فى عالم الشهادة فما قيمة هذا الرأى؟ وما مصادر المعرفة فى هذه القضايا وأمثالها؟

العلم الذى يتلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نوعان : دينى ومدنى ، ولكل منهما مصادره المحترمة بين أهله ، وحدوده التى يقرها خبراؤه ، والراسخون فيه والعلوم المدنية متروكة للاجتهاد المطلق وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء ، ولما كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا ، فإن دائرتها ليست وقفًا على جنس من الأجناس أو عصر من الأعصار ، والسباق العالمى فيها يجرى دون توقف! . .

وقد أفهمنا المعصوم ـ صلوات الله عليه ـ أننا فى هذا الضرب من المعرفة الإنسانية أحرار حرية تامة فقال : «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**..» .

وليت العقل الإسلامى انطلق فى هذا الميدان يبتدع ويكتشف ، ويأتى بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى . .

إنه لايتقيد فى حركته هنا إلا بالحقائق التى يستقر الناس عليها . وينتهون إليها ، وليس للوحى الإلهى دخل فى بحوثه الكيماوية أو كشوفه الفلكية أو إنتاجه الصناعى . . . إلخ .

أما العلوم الدينية بأساسها العتيد ، النقل عن الله ورسوله ، وتستمد مكانتها من قيمة النقل ، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء : الإسناد من الدين ، ولولاه لقال من شاء ماشاء .

ولا يمكن اعتداد شىء ما دينا إذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها! وتتفاوت قيم الثبوت تفاوتًا شاسعًا بين التواتر المقطوع به وأخبار الآحاد المعتلة التى يرفضها البعض ، أو التى يترخص البعض فى قبولها عندما تتعلق بفضائل ، أو بمناقب الرجال . .

على أن ما استقر عليه الأمر فى دوائر التشريع أن الأحاديث الضعيفة ليست مصدرًا لحكم شرعى عملى ، وأن القضاة والمفتين فى حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأثيم . .

فإذا لم يكن ثمت سناد من نص دينى قوى أو ضعيف ، فلا مجال للزعم بأن لله فى هذا الأمر توجيهًا خاصًا . .

للناس أن يقولوا ما يقولون من عند أنفسهم ، ولكن لا مكان لإعطاء كلامهم هالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين . .

إننى أثبت هذه المقدمة وبين يدىَّ نقل طويل قرأته لإمام من أئمة التصوف المعاصر تحت عنوان : «مراتب أهل الغيب» مايلى :

للصوفية - بحسب مراتب الأذواق والكشوف والمقامات ، مؤيدة بمفاهيم الآيات والآثار - أقوال شتى فى مراتب السادة (أهل الباطن) المعروفين عندهم باسم (أهل الغيب) أو (أهل الديوان) وتتلخص هذه الصورة تقريبًا فى الآتى :

١ - الغوث الأعظم ، والفرد الجامع ، الذى هو قدم النبى ﷺ ومجاله الروحى حول العرش .

٢ - ثم الإمامان ، وهما وزيرا القطب عن يمينه وشماله ، ومجالهما الروحى فى طرفى الفرش (الفرش بالفاء ، ما دون العرش بالعين) .

٣ - ثم الأوتاد ، وهم الأقطاب الأربعة الكبار ، ومجالهم الروحى : الجهات الكونية الأربع .

٤ - ثم الأبدال السبعة ، ومجالهم الروحى : السبع الطباق . .

٥ - ثم النقباء الاثنا عشر ، ومجالهم الروحى : البروج السماوية الاثنا عشر . .

٦ - ثم النجباء السبعون ، وهم أهل الخلوة والميقات ، ومجالهم الروحى : الأفلاك والمجرات . .

٧ - ثم الأخيار وهم الحواريون وأهل المعارج وعددهم بين الثلاثين والثلاثمائة ، ومجالهم الروحى : أقطار الأفق الأعلى ، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الأقطاب .

٨ - ثم المفردون ، وهم الأولياء المختارون من صالحى الأمة ، ولا عدد يحصرهم ، ومجالهم الروحى الأفق الأدنى . وأقطار المدن والقرى . .

٩ - ثم الصالحون ، وهم أتقياء الأمة وهم درجات شتى ، ومجالاتهم الروحية متعددة ، ثم إن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء ، فإذا خلا المقام انتقل إليه الخليفة ، ثم ارتفع العريف إلى رتبة الخليفة ، واختير من المستوى الثانى من هو أهل للعرافة ، وهكذا . .

وقد تختلف هذه الصورة عند بعض السادة فى التسميات والأعداد وترتيب المستويات وكلها صحيح فى ذاته معلل بدليله (كما قدمنا) وهو راجع إلى اختلاف

نسب المقامات وإفاضات الكشوف لكن ماذكرناه هنا هو الأوثق عندنا ، والله أعلم .

وعندنا أيضًا أن كل مستوى من هذه المستويات محفوف بأرواح كل من سبق أن شغله من أهل الله السابقين وعلى هذا فإن شاغله من الأحياء يعتبر ممثلا للأرواح التى سبقته ، إلى هذا المقام ، فهى تحوطه ، ومنها يستمد الكثير من السر والإفاضة .

وكما أرجعنا أقدام الأقطاب الأربعة الكبار إلى نظام أهل الملأ الأعلى باعتباره مرجع النظام الكونى كله ، والتناسب الرابط بينه وبين العالم الأرضى حقيقة مسلمة فكذلك . مقام الإمامين أحدهما مستغرق فى (الجلال) على قدم (مالك النار) ومن هنا صح مقام (الكمال) للغوث الأعظم ، جامعا فيه بين الجمال والجلال . .

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلا ، هما مقاما : آدم وإدريس ، ثم إلياس والخضر ، ومن شاء الله من أهل النبوات ، ثم من على أقدامهم من الربانيين مشهورين أو مستورين ، وكان على مقام الإمامين السعيدان : سيد الأوس والخزرج ، والسعيدان : ابن المسيب وابن جبير ، والصاحبان الفقهيان : أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، والشيخان المحدثان : البخارى ومسلم وهكذا . .

ويجتمع (أهل الديوان) وهم كبار أصحاب الوظائف الغيبية ، أرواحًا وهيولا ، فى المعاهد الثلاثة المقدسة : الحرم المكى ، والحرم النبوى ، وبيت المقدس ، ثم فى أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لأهل القلوب ، على توقيت وترتيب دقيقين ، فليس فى الغيب فوضى ، ولا تجمد وعدم ، ولا انفصال الغريب المنفصل المعالم !! ا . هـ .

قرأت هذا الوصف للكون وحركات عالمى الغيب والشهادة ثم تساءلت عن هذا اللون من المعرفة : أهو مادى ألتمس أدلته من علم الكون والحياة والطبيعة والكيمياء؟ . .

وكان الجواب السريع : لا . . فإن علماء الكون والحياة لا يقررون من هذا الكلام حرفًا . .

أهو دينى نلتمس أدلته من الكتاب الكريم والسنة المطهرة؟ .

وراجعت سور القرآن كلها ، فلم أجد لهذا الكلام شاهدًا ، وأخذت أتذكر ما أعرف من السنن التى رواها البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حنبل . . إلخ ، فلم أجد لهذا الكلام شاهدًا . .

قلت : هل هذا الكلام رأى فقهى يستند إلى أثر ضعيف عند الناس قوى عند صاحبه! . . إن هذه الآراء وجدت فى علومنا ، ألا ترى الأحناف يحكمون بنقض

وضوء من يقهقه فى الصلاة اعتماداً على أثر أخذوا به ، والشافعية يشترطون أربعين لصلاة الجمعة اعتماداً على حديث لين؟ . إن أصحاب هذه المذاهب معروفون لدينا وقد يخطئهم غيرهم فى هذه الآراء ، وعلى كل حال فإن من ذهب إليها لا يتعصب لها ولا يظن أنها الصواب الذى لا صواب وراءه ، ولا يصفها بتاتا بأنها حقائق مستيقنة! . . لكن الأستاذ الكاتب ـ عفا الله عنه ـ لا يعتمد فيما كتب على مرويات قوية أو ضعيفة ، ومع ذلك فهو يتهم من يعارضه بالجهل ويوصيه بأن يمسك جهله على نفسه وحدها ، وإلا فهو سيقول هرطقة أو شقشقة ، أو هنبقة أو فيهقة باسم الدين المظلوم . . هكذا يقول! . .

عجبا ، هل إذا أنكرت اجتماع أهل الديوان من أصحاب الوظائف الغيبية ، فى مكة أو المدينة أو القدس ـ قبل احتلالها أو بعده ـ أتعرض لهذه التهم؟ . . لماذا؟ شىء لم يقله الله ولا رسوله ، بل شىء نجزم أن أصحاب رسول الله ماتوا وهم لا يعرفون عنه شيئًا ، يعتبر إنكاره هرطقة وهنبقة؟ لماذا؟

هل لأى إنسان يقوم الليل ويصوم النهار أن يقول لجماهير المسلمين كلاما لا يعرفونه فى مراجع دينهم ، ويلزمهم باعتناقه؟ وإلا فهم جهال؟ . .

ذاك ما نرفضه جملة وتفصيلا . .

بل إن الذى نوصى الجماهير به أن يعضوا على كتاب الله وسنة رسوله . . وأن يحكّموا ما عداه إلى ما ورد وثبت . . فمن أتى لهم بشىء من عند نفسه ردوا عليه . .

وليس للخواطر أو الإلهامات أو الرؤى أو الخيالات أى موقع من مصادر التشريع . لقد قرر علم الفلك حقائق معروفة عن حركات الأرض حول نفسها وحول الشمس ، فإذا جاء رجل يحلف أنه لا خلاف بيننا على أن الله يؤتى فضله من يشاء ، وأنه فضل بعض الأنبياء على بعض ، وبعض الأمكنة والأزمنة على البعض . . إلخ . .

لكن من أين تعرف هذه التفضيلات ومداها؟ . .

الذى نقرره قاطعين أن الشارع وحده مصدر هذه المعرفة . .

ونحن من الكتاب والسنة نعرف أن المؤمن ينظر بنور الله وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾[1] . .

(١) الحديد : ٢٨ .

لكن ليس من النظر بنور الله أن نفتح أبواب الرجم بالغيب لكل إنسان مهما اجتهد فى عبادته وتقواه ، ليقول فى دين الله كلاما لا برهان له به إلا المعاناة الخاصة والكشف الذاتى . .

إن قسم السمعيات من ديننا يشمل الأمور الغيبية التى لاتعرف إلا عن طريق المعصوم ، فالصراط والميزان ، وثواب القبر وعقابه ، وشئون الملأ الأعلى ، وبعض الأوصاف الإلهية ، كل أولئك لا ينفرد العقل بإدراكه ، ولا سبيل للبشر إليه إلا بتوقيف من الشارع نفسه . .

فإذا جاء امرؤ فزعم أن حملة العرش الثمانية تحتهم ستة عشر ملكًا ، ثم اثنان وثلاثون ملكا . . وهكذا متواليات هندسية قلنا له : من أين جئت بهذا الكلام؟ . .

ومن حقنا أن نقول له هذا ! . . بل إننا نجرم فى حق ديننا إذا لم نقل له : من أين جئت بهذا الكلام؟ . .

فإذا لم يذكر آية من كتاب ، ولا أحاديث مقبولة عن رسول الله وجب أن نمحو هذه الزيادات وأن نرفض تلك الإضافات .

والمقامات الكبرى التى شرحها الأستاذ محمد زكى إبراهيم ، وتحدث فيها حديثه المدون فى مجلة المسلم عن الملائكة والأقطاب هى إقحام لجملة من المعلومات الغريبة على قسم السمعيات فى ديننا ، دون أن يكون لهذه المعلومات الدخيلة أى إسناد من كتاب أو سنة . .

وقد هدد من ينكرها بأنه «عند أهل الحق معوق عن السلوك ، مؤخر عن الوصول ، معرض للسلب والاستدراج»! .

بل قال إن إنكارها «موطئ لما قد يكون به سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به فيسلم له»!! . .

ونقول دون تردد : هذا باطل ، فقد انتهى الوحى ، ولا نسلم لبشر أن يزيد فى حقائق الدين ، بل إن الزيادة فى هذا الباب لا تقل خطرًا عن وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ ، ومن حق المسلمين فى المشارق والمغارب أن ينادوا : هذا وحى من عند الله فيقبل وهذا لغو من عند الناس فيرفض .

ثم إنه فى باب السمعيات لا تقبل الروايات المعتلة ، ولا الأسانيد والمتون المختلفة ، لقد ذكر السيوطى فى كتابه «الإتقان» أن هناك ثلاثة أقوال فى ألفاظ

القرآن ، إنها من عند محمد (كذا)! وإنها من عند جبريل! . . وإنها [illegible] من عند الله . .

وإيراد هذا الكلام ضرب من الجهل رفضه المسلمون أجمعون ، فالقرآن ألفاظ ومعانى من عند الله ، ولكن السيوطى حاطب ليل وجماع للحق والباطل دون تمحيص ، ونحن لا نأخذ ديننا بهذه الطريقة البلهاء . .

وإننى أعجب : لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المنكورة؟! إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة ، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما نفعل ونترك . .

ويمكن تسميته على الأخلاق الدينية ، لأن تراثه المتقى لا يخرج على هذا الإطار وقد كان أبى رحمه الله صوفيا من أتباع الشيخ أبى خليل ، فما عرفته إلا كادحًا يتقى الله فى رزقه ، ويقرأ كتابه فى دكانه ، ويعايش الناس على الأخوة السمحة ، ولا يعرف شيئًا بعد ذلك من هذه الخيالات .

أخشى إذا حرص صوفية العصر على التشبث بغير الكتاب والسنة أن يجنوا على التصوف جملة وتفصيلا ، فيجتاح من أصله . .

ولهذه المناسبة نذكر ما لهجت به الألسنة أخيرًا من تفسير الدكتور عبد الحليم محمود لأوائل سورة النجم .

يقول الله تعالى واصفا الوحى النازل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[1] فمن هو شديد القوى الذى استوى بالأفق ثم اقترب من الرسول فعلمه ماتعلم؟ . .

فى سورة التكوير يذكر هذا المعنى بأسلوب آخر ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[2] . . إلى أن قال : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾[3] . .

وفى سورة الشعراء يصاغ هذا المعنى نفسه فى قالب آخر : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾[4] . .

(١) النجم : ٥ ـ ٩ .
(٢) التكوير : ١٩ ، ٢٠ .
(٣) التكوير : ٢٣ .
(٤) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٤ .

قلب الرسول الأمين هو ملك الوحى ، جبريل لا غير . .

لكن الدكتور عبد الحليم محمود عفا الله عنه لوى عنق الآيات من أوائل النجم ، وجعل الذى دنا فتدلى ، هو الله ـ سبحانه وتعالى .

وهو خطأ مبين ، وينبغى عند تفسير آية مانزلت فى موضوعها آيات أخرى وأحاديث متعددة الروايات ألا نحصر أنفسنا داخل آية واحدة ، ورواية واحدة ، ثم نتعسف القول ، خصوصًا عندما يتصل الأمر بذى الجلال والإكرام .

وحب رسول الله ﷺ لا يشفع فى هذا الخطأ . .

لقد اعتمد الدكتور الفاضل فى رأيه على حديث للبخارى أخرجه من رواية شريك بن أبى نمر عن أنس بن مالك ، وهذه الرواية مجرحة ، قال النووى فى شرحه لمسلم : قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : قدم وأخر وزاد ونقص!! يعنى فى الرواية التى أوردها البخارى عنه . .

وهذه الرواية المنكرة تصرح بأن الإسراء قبل البعثة! وأن القصة كلها رؤية منام! وأن رب العزة هو الذى دنا فتدلى!

ونقل القاضى عياض إنكار أهل العلم لهذه الرواية ، قال النووى : وهذا الذى قاله القاضى عياض قاله غيره . .

وقال الحافظ عبد الحق فى كتابه «الجمع بين الصحيحين» بعد ذكر هذه الرواية عن أنس ـ التى أثبتها البخارى ـ قد زاد فيها شريك زيادة مجهولة وأتى فيها بألفاظ غير معروفة .

هذه هى الرواية التى اعتمد عليها الدكتور عبد الحليم فى تفسيره الذى دافع عنه بحرارة وأثبته فى رسالته التى نشرها مجمع البحوث ، وهو تفسير لا يقبل بتاتا! . .

ولا أدرى لم تلقى الأحكام الخطيرة بهذه الطريقة المستغربة؟ ولم لا نعود إلى كتبنا الأولى نستبين منها الرشد ؟ . .

